المرحلة الثالثة عشرة: ١٠٥٥ ـ ١٥١٧
موجات من اسيا الوسطى: الاتراك السلاجقة
هيمنة الشرق الأدنى الاسيوى
إيران ـ الأناضول

تحويل اسيا الصغرى الى التركية وبسط سيادة الاسيويين على عالم الشرق الادنى

«إستعاد الأتراك من أيدي العرب الخائرة القوى المشعل الذي كاد ينطفىء. وخلف شعب السهوب شعب الصحراء وأطلق المد الإسلامي الثاني متوسلاً الأساليب العسكرية نفسها إنما على مناطق مختلفة» (م. كليرجي).

في حين دفع الغزو المقدوني الهللينية حتى حدود عالم العرق الأصفر، أعاد بدو تركستان بعد بدو الحجاز بدورهم الهللينية إلى منابع توسعها.

A. الأتراك منذ الأصول وحتى فرض هيمنتهم السياسية على الشرق الأدنى

I. الأتراك الأولون: إسمهم، بلدهم الأصلي، عرقهم، لغتهم، كتابتهم ودينهم.

١ ـ تسمية تركي

رغم أن أصل مختلف الشعوب التي تتكلم اللغة التركية أو لغات تنتسب إليها يعود إلى مرحلة قديمة جداً فإن إسم تركي (تو ـ كيو) بالذات والذي نسمي به اليوم هذه الأسرة اللغوية لم يظهر إلا في القرن السادس من عهدنا كإسم أو لقب أعطي لإحدى مجموعات هذه الأسرة الكبيرة التي كانت تعيش يومها في منغوليا الشمالية.

وحوالي العام ٥٤٠، يقول ر. غروسيه، ومن بين تابعي جوان ـ جوان، وهم من العرق المغولي على الأرجح كانوا يسودون في منغوليا، «كان هناك، على ما يقول الصينيون، شعب التو ـ كيو وهو شعب من عرق تركي أعطى إسمه لمجموعة الأمم التي لها هذا الإنتماء اللغوي نفسه. وإن إسم تو ـ كيو الصيني، يوضح الأستاذ م. بيليو، قد يطابق صيغة جمع مغولية (جوان جوان) هي كلمة توركوت من تورك ومعناها الحرفي «قوي». وبحسب الحوليات الصينية فإن التو ـ كيو كان طوطمهم القبلي هو الذئب. وكانوا من سلائل شعوب هيونغ ـ نو القديمة (الهون) مما ينطبق على الطبع التركي الأولي الذي يعزوه م. بيليو الى الهون. وإن مسكن التو ـ كيو في مطلع القرن السادس، كان على ما يبدو، في منطقة الطاي حيث كانوا ينصرفون إلى أعمال التعدين ومهنة الحدادة»[1].

1 Grousset, *L'Empire des Stepnes*, p. 125.

ولكنها تستخدم لتسمية الشعب المعروف في المصادر البيزنطية بأوز أي أوغوز»[2].

فيمكننا إذن الإستنتاج من غير أن نتمكن من إثبات ذلك أن كلمة تركي في الأصل هي إسم أو لقب، ومعناها قوي، أطلق على مجموعة القبائل التي كانت تسكن في القرن السادس منطقة الطاي (منغوليا). وهم من سلائل أو أقرباء الهون الذين غزوا أوروبا بقيادة أتيلا (٤٤٥ ـ ٤٥٣) وإن إسمهم أو لقبهم أعطي بعد ذلك لمجموعة الشعوب الأخرى التي تنتسب إلى الأسرة اللغوية نفسها،أسرة الأتراك العتيدين الذين سوف يغزون آسيا الغربية.

٢ ـ بلد الأتراك الأصلي

أ ـ منغوليا وأوضاعها الطبيعية

إن محل السكن الأصلي بالنسبة إلى الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها الشعوب المختلفة التي تتكلم اللغات التركية هي منغوليا وهي منطقة في آسيا الوسطى مؤلفة من صحارى وجبال وسهول وتقع بين الصين التي تحدها جنوباً ومنشوريا التي تحدها شرقاً وسيبيريا الشرقية شمالاً وسلسلة جبال الطاي وبامير غرباً.

إن هذه المساحة الواسعة من الأرض، والتي لا تحدها حدود طبيعية، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مناطق تختلف في طبيعة أرضها ومناخها ونباتها وحيوانها. المنطقة الوسطى منها مؤلفة من صحراء صخرية هي صحراء غوبي. المنطقة الثانية في الشمال الغربي تضم مجموعة من السلاسل الجبلية المتجهة بتوازٍ بعضها مع بعض من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. المنطقة الثالثة في الجنوب الشرقي تضم سلاسل جبال عدة وعدداً كبيراً من الأودية الصالحة للزراعة وهي تشكل حلقة وصل بين صحارى منغوليا والسهول الكبرى في منشوريا والصين.

إن مناخ منغوليا يتميز بجفاف الجو الشديد مع فارق هائل في الحرارة بين النهار والليل وقد يصل هذا الفارق إلى ٤٠ درجة. إن متوسط الحرارة يقرب من الصفر على سلم السنتيغراد. وإن أقصى درجتين في الحرارة والبرودة يمكن ملاحظتهما في أورغا وأوليا سوتاي مثلاً هما ٣٤ فوق الصفر و٤٨ تحت الصفر أي بفارق ٨٢ درجة.

2 W Barthold, *Histoire des turcs d'Asie Centrale*, Adaptation française par Mme M. Donskis, p. 25-26.

النبات هو نبات سهوب آسيا الوسطى نفسه. فنبات غوبي مثلاً هو أفقر النباتات الذي يمكن تصوره. والمناطق الأقل قحلاً هي مناطق الشمال والجنوب الشرقي. والعشب نادر في السهب. والزراعة لا أثر لها فالشعوب التي تسكن منغوليا هي من البدو. حيوان الجبال قريب من حيوان التيبت والهملايا. وعدد الحيوانات اللبونة لا يتعدى الخمسين نوعاً. عدد الطيور المستقرة قليل والحيوانات الداجنة بشكل رئيسي هي الخراف والأبقار والجمال والخيول والماعز والكلاب.

ب ـ الأتراك الأولون وتأثير الأحوال الطبيعية في منغوليا عليهم

إن حالة البداوة الأولية والأحوال الطبيعية التي يتميز بها موطنهم الأصلي جعلت من التركي ـ المغولي الأولي نموذجاً بشرياً غير عادي. فهو كبدوي، تغلب عليه صفة الصياد والخيّال، يختلف في آن واحد عن بدوي الجزيرة العربية ذلك البدوي الذي تغلب عليه صفة الراعي وعن الهندي ـ الآري البدائي الذي هو بدوي مزارع، بصفات جسدية ونفسية خاصة. فالجواد الذي هو في منغوليا حيوان متوحش قد تم تدجينه منذ أقدم العصور. وكما السيارات في المساحات الواسعة من أميركا المعاصرة كان في ذلك الجزء من آسيا القديمة ركن الحياة الذي لا غنى عنه.

«وهناك فقط كان لحياة الجواد تأثير على صفات الأعراق الجسدية. فالأعراق التي تدعى بحق تركية ـ مغولية ما تزال تحتفظ حتى اليوم في معظمها بالسمة الظاهرة التي دمغتها بها عاداتها المتأصلة كبدو يعدون على جيادهم بلا توقف وقد عاشوا على الجواد خلال آلاف السنين. إن قوة الجذع الأعلى من الجسم والقصر النسبي للأعضاء السفلى وصغر أطرافهم وحتى شكل فتحة جفونهم هي، كمقاومة التعب وتقلبات الطقس من تلك الطبائع المكتسبة من حياة البداوة على الحصان». (زابوروفسكي).

ومن جهة أخرى فإن الأحوال المناخية القاسية إلى حد كبير والأحوال الطبيعية الشديدة القسوة قد صاغت الأفراد على صورتها وشاكلتها. «فلم يكن هناك يوماً أناس أقرب إلى الأرض منهم ونجد تعليلاً لتعلقهم بهذه الأرض خصوصاً وأن البيئة غلبت وجودهم فيها... إن السهوب قد صنعت تلك الأجساد غير النامية والمربوعة، فهم لا يمكن إخضاعهم بعدما إستطاعوا الإستمرارية في تلك الأحوال الطبيعية. إن الهواء اللاذع في تلك الهضاب المرتفعة والبرد الشديد أو الحرارة اللاهبة قد صاغت تلك الوجوه ذات العينين المائلتين المشدودتي الأطراف والوجنتين الناتئتين

والشعر القليل وقسّت تلك الجذوع الملتفة الضامرة. وإن مستلزمات حياة المرعى والتنقل إلى أماكن الإنتجاع فرضت عليهم حياة البداوة، كما أن معطيات الإقتصاد البدوي قد سببت علاقاتهم مع الحضر وهي علاقات تتسم تارة بالضربات الخجولة وطوراً بالغزوات الدموية. فإذا إستسلمت المجتمعات الحضرية وهي غالباً في حالة إنحطاط، تحت ضرباتهم فإن البدوي يدخل إلى المدينة ويحل من غير عناء يُذكر محل الأسياد الذين هزمهم...

وها هو بعد نصره هذا خان كبير في الصين أو ملك فارس أو أمبراطور الهند أو سلطان الروم. وعندها فهو يتكيف: ففي بكين يصبح نصف صيني ونصف فارسي في أصفهان أو في راي. فهل إن القدر تحدد بهذا، وتأمن التوفيق بين السهب والأراضي المزروعة؟ أبداً. فالسنن المحتومة التي تفرضها الجغرافيا البشرية تستمر في لعب دورها. وإذا لم يُزح الخان الذي أصبح صينياً أو إيرانياً نتيجة ردة فعل بطيئة أو مفاجئة يقوم بها السكان الأصليون، فهو لن يلبث أن يهاجم على حدوده من قبل حشود جديدة خارجة من قلب السهب وهي ما تزال تتضور جوعاً ولا ترى في نسيبها الحديث النعمة ذاك سوى فارسي أو صيني فتعاود الكرّة على حسابه...

فلِمَ إذن زال هذا التفوق البدوي؟ ولِمَ وبدءاً من القرن السادس عشر لم يعد البدوي يسيطر على الحضر؟ ذلك أن الحضر جابهوه بالمدفعية. وما بين ليلة وضحاها فإن هؤلاء الحضر إكتسبوا بذلك تفوقاً مصطنعاً «قلب» موازين القوى القديمة».[3]

إن العلاقات والإتصالات بين البدو الترك ـ المغول والحضر الصينيين والإيرانيين والنتائج التاريخية التي نجمت عنها تشبه تماماً تلك العلاقات بين بدو الهضبة العربية وحضر الهلال الخصيب ووادي النيل.

٣ ـ عرق الأتراك البدائيين

أ ـ الأتراك والمغول البدائيون

إن الأتراك البدائيين هم كمعاصريهم المغول تماماً يقسمون إلى مجموعات عدة عرقية ـ لغوية فرعية. ورغم أن هاتين المجموعتين من الشعوب هما من أصل واحد وتتحدران على الأرجح من الجدود أنفسهم، إلا أنهما تتميزان

3 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 7, 9, 10, 11.

بعضاً عن بعض بفوارق إنسانية ولغوية تجيز لنا الإعتقاد بأن لا علاقة قربى بينهما.

فبرغم العدد الكبير من القواسم الوسيطة التي تجمع بينهما فإن هذين النموذجين من الشعوب لا يمكن الخلط بينهما. فالمغول ذوو وجوه عريضة وتميل إلى القصر وأنفهم أفطس جداً عند جذره والأعين ذات فتحة جفون ضيقة ودائماً مائلة ومشدودة الأطراف. وهم غير ملتحين أو ذوو لحى ذات شعر خفيف وقاس. إن التركي مع وجود اللحية غالباً على وجهه، يبدو وجهه أميل إلى الطول وأنفه مرتفع القاعدة وضيقاً وأحياناً معقوفاً.

ومن جهة أخرى وبرغم إنتمائهما إلى أسرة اللغات الآسيوية المركبة المزجية فإن اللغتين التركية والمغولية تفتقران إلى تلك القربى التي تميز اللغات السامية أو اللغات الهندو ـ أوروبية. وأما تنوع اللغات العامية التركية فيعود إلى انتشار مجموعات هذا العرق على أراض بالغة الامتداد في مناطق آسيا الغربية.

فهل إن الأتراك والمغول يمتون بالقربى إلى الأسرة الفنلندية ـ الأوجرية (فنلنديون، مجريون، ساموييون)؟ إن علماء اللغات «حتى إيجاد البرهان الكافي يرفضون التسليم بوجود صلة أصلية بين اللغات الألطائية (تركية، مغولية، طونجية) واللغات الفنلندية ـ الأوجرية المتمحورة في منطقة الأورال. ومن جهة أخرى فإن الفارق الكبير الموجود اليوم بين اللغات التركية والمغولية واللغة الطونجية يدعو إلى الإعتقاد بأن تلك المجموعات الثلاث والتي إجتمعت في مراحل تاريخية تحت أسماء واحدة... تمكنت من العيش متباعدة عن بعضها بعضاً إلى حين عبر مساحات شمال شرق آسيا الشاسعة[4]».

ب ـ التوزيع الجغرافي للأتراك والمغول

إن الأتراك العتيدين والمغول المقبلين كانوا يعيشون في مجموعات متميزة بعضها عن بعض ومتجاورة من غير إختلاط في تلك المساحات السهبية القاسية والشاسعة والتي تدعى اليوم منغوليا. وكانت عشائرهم العديدة في عراك دائم بعضها مع بعض حيث كان يشتبك الترك تارة مع المغول أو يشتبك الترك طوراً مع بعضهم بعضاً أو المغول مع بعضهم بعضاً إما على إمتلاك أجود المراعي أو الهيمنة على البلاد أو المناطق الصينية أو الإيرانية المجاورة.

4 R. Grousset, *L'Empire des steppes*, p. 21.

«إن التاريخ الداخلي للسهب الآسيوي ـ الروسي هو تاريخ الزمر التركية ـ المغولية التي كانت تتنازع للفوز بأفضل المراعي وتقطع، أحياناً دونما هدف آخر سوى حاجات قطعانها، متنقلة من مراعٍ إلى مراعٍ لا حدود لها ومستغرقة في هذا التقلب أحياناً قرونا بأكملها، نظرا للمساحات الشاسعة التي أفسحتها الطبيعة أمام تنقلاتهم على جيادهم والتي كان كل شيء لديهم معداً لها: البنية الجسدية ونمط الحياة»[5].

ونحن نجهل كيف كان التوزيع الجغرافي أصلاً لكل من الأتراك والمغول في قطاع منغوليا الأولى الواسع. غير أنه، وفي القرن العاشر من عصرنا، تفوق المغول على الأتراك فدمروا أمبراطورية هؤلاء الأتراك التي كانوا قد شادوها منذ قرون عدة. وإن الأتراك، الذين إفتقروا ونُغص عيشهم على يد هازميهم، هاجر جزء كبير منهم نحو المناطق الشمالية والغربية. وأما هؤلاء الذين ظلوا بعد زوال سيادتهم فقد ظلوا يسكنون جزءاً من منغوليا الحالية حتى توحيد تلك البلاد على يد جنكيز خان (١١٥٤ ـ ١٢٢٧) والذي جنّد تحت لواء المغول الزرق كل قبائل منغوليا.

وأما اليوم فإن المغول مجتمعون في منغوليا التاريخية والطونجو في منشوريا الشمالية وجزء من سيبيريا الوسطى والشرقية. وأما الأتراك فإن منطقة نفوذهم الحالية تمتد على سيبيريا الغربية وجزء من القفقاس والتركستان وآسيا الصغرى. ومعلوم أنه وفي تلك المناطق الأخيرة فإن الأتراك لم يقيموا فيها إلا منذ عصر حديث نسبياً. فيما شعب الياقوت الذي ينتسب لغوياً إلى الأسرة التركية يعيش في شمال سيبيريا الشرقية حيث هاجر إليها منذ عصر بعيد جداً.

٤ ـ لغة الأتراك الأولين وكتابتهم

أ ـ اللغة التركية البدائية

إن علماء التركيات يعزون مختلف اللغات التركية القديمة إلى مجموعتين لغويتين منفصلتين هما: الياقوت والتشوفاتش. وإن مختلف اللغات التي تكلمها الأتراك العتيدون المهاجرون نحو مناطق الغرب تنتمي إلى مجموعة التشوفاتش اللغوية.

5 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 20.

«وإن لغة الياقوت هي خاصة بشعب إنفصل منذ الأزمنة البعيدة عن سائر الأتراك وهاجر نحو أقصى الشمال ومن بعدها لم يشارك البتة في الحياة التاريخية التي عرفتها سائر الشعوب التركية. ومن جهتها فإن لغة التشوفاتش بقيت في حوض الفولغا في منطقة إستقطبت هجرة أتراك آسيا الوسطى. . .

وقد أشار الجغرافيون العرب إلى الشبه القائم بين مختلف اللغات التركية بما فيها لغة البشناق في جنوب روسيا ولغات الأتراك المجاورين للصين مضيفين أن لغة خاصة كان يتكلمها البلغار والخزر المستقرون قرب مجرى نهر الفولغا الأوسط وهي لغة لم يكن سائر الأتراك يفهمونها وكانت تختلف أيضاً عن اللغة الفنلندية.

لقد ناقش العلماء طويلاً طابع لغة التشوفاتش. . . وخلال تلك المناقشات التي جرت في لينينغراد أقر العالم بوب بأن لغة التشوفاتش يمكن مشابهتها مع اللغة التركية لكنها تنطبق على بقايا مرحلة قديمة من مراحل تطور اللغة التركية.

إن الأحداث التاريخية تحملنا على الإفتراض بأنه وإذا كان صحيحاً أن لغة التشوفاتش تمثل بقايا إحدى أوائل مراحل تطور اللغة التركية، فإن لغة الهون تنطبق على هذه المرحلة. . . وإن هذه اللغة قد إنتقلت إلى الغرب على الأرجح بواسطة الهون وإن آثارها ماثلة في جميع اللغات التي تتصل مباشرة أو بشكل غير مباشر بهجرة الهون بما فيها العناصر التركية في اللغة الفنلندية»[6].

ب ـ الكتابة التركية الأولية

ويقر العديد من العلماء بأن الأبجدية التركية القديمة قد تكون مشتقة من أبجدية إيران الشرقية، المعروفة عادة بالسجديانية نسبة إلى منطقة سجد أوسجديان حيث توجد مدينتا سمرقند وبخارى.

«إن الأتراك لم يكتفوا على ما يبدو بإعتماد أبجدية جاهزة: بل أضافوا إليها بعض الإشارات لتتلاءم مع الخصوصيات الصوتية واللفظية التي تميز لغتهم وبخاصة في ما يتعلق بالتناغم الصوتي. ونجم عن ذلك أن أقدم الأبجديات التركية يمكن إعتبارها على أنها أكمل الأبجديات التي إستخدمها الأتراك في تاريخهم. . . وأما الكتابة (الخط) فمضبوطة بدقة كما أن الأسلوب وطريقة

6 Barthold, *op. cit.*, *p.* 22-23.

التعبير فتتيحان الإفتراض بأن الشعب الذي إستخدم تلك الكتابة لم يكن عند مستوى ثقافي متدنٍ الى الدرجة التي قد نتصورها نظراً لظروف حياته البدوية»[٧].

٥ ـ دين الأتراك الأولين

إن الوثائق القديمة لا تشير إلا إلى عبادة السماء (طنجري) والأرض. وإن «الأرض والماء» التركيتين (يرسوب) فإعتبرتا إلهاً واحداً لا ينقسم. وكإله منفرد نذكر فقط الإله أوماي وهو الروح التي تحمي الأولاد الصغار.

وفي القرن الثالث فإن المانيشية والمسيحية الآتيتين من الغرب إنتشرتا في آسيا الوسطى. «وكان للمانيشيين كتابتهم الخاصة وكذلك للمسيحيين الذين عرفت أبجديتهم بالأبجدية السريانية... وإن الإيرانيين والأتراك، الذين إعتنقوا المانيشية والمسيحية، إستخدموا الحروف المانيشية والسريانية لفترة طويلة. غير أننا قد نجد أيضاً بعض نصوص مانيشية ومسيحية محررة بالكتابة القومية السجديانية.

وقد ظهرت العقائد الدينية الشامانية بشكل خاص في الشعائر الجنائزية عند الأتراك... ونحن نعلم من المصادر البيزنطية أنه وقرب أضرحة الخانات الترك كثيراً ما كان يضحى بقادة الجيوش الأعداء الذين وقعوا أسرى بين أيديهم... فالإنسان لا يخشى أي عقاب في العالم الآخر إذا إعتدى على حياة إنسان آخر بل على العكس كان يعتقد بأن مصيره في العالم الآخر سيكون أفضل بنسبة طردية إلى عدد الأرواح التي أزهقها»[٨].

إن هذا القول ينطبق بالطبع على الأعداء في زمن الحرب، إذ أن القادة الأتراك كانوا يضنون بحياة رجالهم. ففي نقوش الأورخون «يرثى لدم الشعب التركي الذي جرى كالأنهار في أزمنة المآسي. غير أننا لا نجد تباهياً بسفك الدم الأجنبي في زمن النصر ولا إشارة إلى عدد القتلى من الأعداء ولا لأي أعمال وحشية حيوانية مرتكبة ضدهم كما هي الحال في نقوش الملوك الأشوريين»[٩].

7 *Barthold, op. cit.*, p. 11.

8 Barthold, *op. cit.*, p. 13-14.
9 Barthold, *op. cit.*, p. 11-12.

٦ ـ الأتراك ـ المغول عرق معد للقيادة

إن الأتـراك ـ المغـول، وهم بـدو يعيشـون من تـربيـة المـواشي ويتنقلون بقـطعانهم في سهب واسـع هو مـوطن الجواد، كـانوا خيّـالة بفـطرتهم فضلاً عن أنهم كـانـوا رمـاة سهـام من عـلى ظهـور الجيـاد. فبـدءاً من العصـر المسيحي خصـوصاً بـدأت مجموعـاتهم المتنقلة تندفـع نحو السهـوب الغربيـة أي سهـوب روسيا والمجر ثم آسيا الغربية بحثاً عن المغامرة.

«إن الهيـونغ ـ نـو هم الـذين تحت اسم الهـون سيؤسسـون أمبـراطـوريـة تركية أولية في جنوب روسيا والمجر. . . وبعـد الهون جـاء الآفار وهم مجمـوعات رحالة مغولية هاربة من آسيا الوسـطى. . . وصلت في القرن السـادس وحكمت تلك المناطق نفسها في روسيـا أولاً ثم في المجر. وقـد اقتفى أثرهـا الأتراك الخـزر في القرن السابع فالأتراك البشناق في القرن الحادي عشـر فالأتـراك الكومـان في القرن الثاني عشـر، وأخيراً المغـول الجنكيزخـانيون الذين سيصنعون، إذا صـح التعبـير في القرن الثـالث عشر، سبيكـة السهب ويصبحون تجسيـداً للسهب من بكين وحتى كييف»[10].

وامـا إنتشار الحشـود من السهب المغولي بـإتجاه منـاطق الجنـوب فلم يكن أقل حظاً من غزواتهم الأخرى. وقد وصل هـذا الإنتشار مـرات عديـدة إلى حد الفتـح. وفي أغلب الأحيان كـان يبـرز قـائـد قـوي الشخصيـة من بـين قـادتهـا فيستقـر مع قبيلتـه في المقـاطعـات الحـدوديـة من الممـالـك الصينيـة حيث يقـوم أحفـاده من بعده بـالإنحـدار نحـو الجنـوب للجلوس عـلى عـرش أبنـاء السـماء (ملوك الصين).

«ومثلما كان الوضع يجري في عـالم الإسلام حيث تتم عمليـة التحويـل إلى الإسلام والفارسية لدى الفـاتحين الأتـراك في إيران والأنـاضول فقـد كان يجري تحول أيضاً لدى الفاتحين الأتراك والمغول والـطانجو في أمبـراطوريـة الصين إلى الصينية. هنـا يصبح الخـان سلطانا أو بـاديشاه كـما أصبح هنـاك إبن السماء. وهنا أيضـاً لن يلبث أن يتخلى عن مـركزه لصـالح خـانات آخرين أكثر خشـونة خـرجوا لتـوهم من السهب. وهكذا رأينـا الأتراك الغـزنويـين والأتراك السلاجقة والأتراك الخوارزميين والمغول الجنكيزخانيين والأتراك التيموريين يدمر بعضهم بعضاً ويتوالون على حكم إيران. . . ناهيك بالأتراك العثمانيين الذين

10 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 19-20.

إنطلقوا كالسهم إلى الطرف الأبعد لطليعة الأراضي الإسلامية ليعقبوا السلاجقة المحتضرين وينطلقوا من هناك، يحالفهم حظ لا يصدق، لإحتلال بيزنطية. . .

إن هذا الهجوم الذي تقوم به حشود السهوب، والتي كانت تحضر موسمياً لتنصيب خاناتها على عروش بكين وسمرقند وأصفهان وقونيا والقسطنطينية، أصبح إحدى السنن الجغرافية في التاريخ. لكن هناك سُنّة ـ معاكسة ـ تلك التي تجعل البلدان المتحضرة القديمة تستوعب ببطء الغزاة البدو.

وأفضل من ذلك فإن هؤلاء الأتراك ـ المغول المتحولين إلى الصينية أو الإيرانية، سينجزون عمل ملوك الملوك القدامى أو أبناء السماء. فما عجز عن تحقيقه أي كسرى أو خليفة بإحتلال عرش أباطرة بيزنطية ودخول كاتدرائية القديسة صوفيا فإن خليفتهم غير المتوقع وهو الباديشاه العثماني سوف يحققه في القرن الخامس عشر والذي هلل له العالم الإسلامي برمته. . . إن التركي ـ المغولي إذن لم ينتصر على الحضارات القديمة إلا ليضع قوته في النهاية في خدمتها. فهو، قد هيء، «كالروماني الذي يصفه الشعراء القدامى، لحكم الشعوب، فقد حكم تلك الشعوب القديمة المتحضرة وحافظ على تقاليدها ومطامحها القديمة العهد، لقد حكم الصين ليحقق حكم الأمبراطورية الصينية في آسيا، وحكم العالم الإيراني ـ الفارسي ليدفع أخيراً بالساسانيين والعباسيين إلى قباب القسطنطينية المغطاة بالذهب. إن الأعراق المعدة للقيادة والأمم المؤهلة للتوسع الأمبريالي في العالم قليلة. فإلى جانب الرومان فإن الأتراك ـ المغول كانوا من هؤلاء»[11].

11 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 27-28.

II. لمحة تاريخية عن تطور الأتراك الأولين من الأصول وحتى بسط هيمنتهم على الشرق الأدنى

١ ـ سيادة الحشود التركية ـ الأولية في منغوليا في الألف الأول قبل المسيح.

أ ـ الأتراك الأولون الهيان ـ يون حوالي العام ٨٠٠ ـ ٧٠٠ق.م.

منذ أقدم العصور التي يمكننا العودة إليها زمنياً أي في مطلع الألف الأول قبل المسيح كان الجزء الشرقي من سهوب منغوليا مأهولاً بشعوب بدوية من العرق التركي ـ المغولي. وإن الصينيين في القرنين التاسع والثامن قبل المسيح كانوا يطلقون اسم هيان يون وهيان يو أو هو (الهون العتيدون؟) على تلك القبائل التي كانت تسكن على حدود الصين.

ب ـ هيمنة الأتراك ـ الأولين الهيونغ ـ نو على منغوليا

وفي القرن الثالث قبل عهدنا تذكر الحوليات الصينية أمة الهيونغ ـ نو كأمة مسيطرة بين الأتراك ـ المغول وقد يكون هؤلاء هم على وجه الاحتمال الهيان يون المشار اليهم آنفاً. وإن اسم هيونغ نو هذا يمكن «المقاربة بينه وبين اسم الهون (هوني) أو هونا وهما الاسمان اللذان أطلقهما الرومان والهنود لاحقاً على تلك القبائل البربرية نفسها... ولم يَبدُ الهيونغ نو موحدين في أمة واحدة قوية إلا في النصف الثاني من القرن الثالث ق.م. وإن هذه الأمة البدوية، وهذا الشعب الرُحّلي كان منظماً كجيش...

وأما المركز اللغوي الذي إحتله الهيونغ ـ نو بين مجموعة الشعوب التركية ـ المغولية فبعض المؤرخين يميل إلى إعتبارهم أقرب إلى المغول. إلا أن م. بيليو فيعتقد العكس استناداً إلى بعض المقارنات اللغوية التي أجراها بين النسخ الصينية، إنهم بالحري ـ على الأقل في مجموعهم وبالنسبة إلى أطرهم السياسية ـ شعب تركي»[1].

ج ـ الأتراك الهيونغ ـ نو الأولون، قوة رهيبة

حوالي نهاية القرن الثالث قبل المسيح أصبح الهيونغ ـ نو قوة مرهوبة. مما إضطر الصين لحماية أراضيها من غاراتهم، بعدما حققت وحدتها حديثاً، أن تبني العام ٢١٥ق.ب. الجدار الكبير وأن تطرد الهيونغ ـ نو العام ٢١٤ من داخل المنحنى الكبير للنهر الأصفر. وإن الهيونغ ـ نو، استغلوا الحروب الأهلية التي أضعفت الصين (٢٠٦ ـ ٢٠٢) ليغزوا مقاطعة في شمال الصين ولم ينسحبوا منها إلا بعدما نالوا مطالبهم (٢٠١) فضلاً عن تزويج أميرة أو وصيفة صينية من قائدهم (تشان ـ يو).

د ـ هجرة شعب يو ـ تشي التركي ـ المغولي نحو بختريان

بين العام ١٧٦ و١٦١ق.م. هزم الهيونغ ـ نو اليو ـ تشي، وهم شعب تركي ـ مغولي من قانصو الغربية، وأرغموهم على الهجرة إلى الغرب حيث أقاموا على ضفاف نهر سير ـ داريا الشمالية عند تخوم مملكة بختريان الإغريقية. وإن هجرة شعب اليو ـ تشي هذه تشكل أول هجرة تاريخية قام بها الأتراك المغول باتجاه آسيا الغربية. ومن سلائل هؤلاء اليو ـ تشي القادمين من الشرق خرجت سلالة كوشانا الملكية التي أسست، كما رأينا، في إيران الشرقية (أفغانستان الحالية) في القرن الأول من عهدنا أمبراطورية كوشان العدوة المرهوبة من أمبراطورية البارتيين الإيرانية.

«إن ما يهم هنا هو إظهار الأثر الكبير الذي كان للمدّ الهوني الأول على مصير آسيا. إذ بحكم أن الهيونغ ـ نو طردوا من كان ـ هو شعب اليو ـ تشي فإن إنعكاسات هذا الحدث قد وصلت إلى آخر آسيا الأمامية والهند. وكانت الهللينية قد فقدت أفغانستان وإمحت آخر آثار فتح الإسكندر الأكبر في تلك المناطق. وتزعزعت إيران البارتية لفترة قصيرة وقامت قبائل مطرودة من كان ـ

1 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 53, 54, 55, 59.

صو بتأسيس أمبراطورية غير منتظرة في كابول وشمال غرب الهند. وستظل الحال هكذا طوال التاريخ الذي نحن في صدده»[2].

هـ ـ الأتراك الأولون الهيونغ ـ نو سادة منغوليا.

بعد هجرة شعوب اليو تشي نحو الغرب فإن الهيونغ ـ نو، الذين زادت أهميتهم بفضل هذا الإنتصار، سادوا على منغوليا وشمال آسيا. وكانت الإقامة الرئيسية لقائدهم أو شان يو في منابع الأورخون في منغوليا الشمالية قرب مدينة قره قوروم المقبلة. وبدءاً من العام ١٦٧ق.م. فقد تعاقبت غزواتهم على الأراضي الصينية والحملات الصينية ضد مجموعاتهم المقاتلة بلا هوادة وتناوب فيها الفوز حيناً والإخفاق حيناً آخر. وإلى جانب تلك الحروب المباشرة ستضاف إبتداء من العام ٧٧ق.م. صراعات أخرى بين المجموعتين المتعاديتين واللتين ستتنازعان بعد ذلك على واحات تاريم في الشمال أي للسيطرة على طريق الحرير التي تصل بين آسيا الشرقية وآسيا الغربية.

و ـ الهون المقبلون يهاجرون إلى تركستان الشرقية (٤٤ق.م.)

وبدءاً من العام ٦٠ق.م. أخذت قوة الهيونغ ـ نو بالإنحدار إثر سلسلة من الحروب الأهلية التي أشعل فتيلها مطالبان بالسلطة وكل منهما يطمح إلى حمل لقب القائد الأعلى. فما كان من أحدهما، للإنتصار على خصمه، إلا أن أعلن نفسه تابعاً لأمبراطور الصين. وبفضل تلك الحماية نجح في تحقيق مطمعه.

«أما تشي تشي المهزوم فقد تخلى عن منغوليا القديمة لصالح عميل الصين وإنطلق في مغامرة جديدة ناحية الغرب في تركستان الروسية الحالية (٤٤ق.م.)... وهؤلاء الهيونغ ـ نو الغربيون لم يكن لهم تاريخ نظراً إلى أنهم لم يعيشوا على إتصال مع شعب كبير متحضر يحفظ عنهم، كالصين مثلاً بالنسبة إلى الهيونغ ـ نو الشرقيين، بعض المعلومات المفيدة عن وضعهم. فقط عندما قام المتحدرون منهم في نهاية القرن الرابع من عهدنا أي حوالي العام ٣٧٠ ـ ٣٧٥ بعبور نهر الفولغا والدون لغزو أوروبا عندها ظهر أولئك الهون في تاريخ أوروبا الكلاسيكي بقيادة بالامير وأتيلا»[3].

2 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 69.

3 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 76, 77.

ز ـ تجزئة الأمبراطورية التركية الأولية في منغوليا (٤٨ب.م.)

خلال قرن من الزمن (٤٨ق.م. ـ ٤٨ب.م.) سيطر الهيونغ ـ نو الشرقيون على كامل منغوليا. ولكن وفي العام ٤٨ب.م. وقع انشقاق بين مجموعاتهم أفضى الى تقسيم امبراطوريتهم الى مجموعتين متميزتين: الهيونغ نو الشماليون على الأورخون في منغوليا الخارجية والهيونغ ـ نو الجنوبيون في منغوليا الداخلية شمال سور الصين الكبير.

٢ ـ هيمنة المغول على منغوليا (١٥٥ ـ ٥٥١ب.م.)

أ ـ هيمنة المغول السيان ـ باي في منغوليا (١٥٥ ـ ٤٠٠ ب.م.).

في حوالي العام ١٥٥ سيطرت على الهيونغ نو الشماليين زمر مغولية هم السيان ـ باي المتحدرون من إحدى مناطق منغوليا الشرقية عند حدود منشوريا. وأما الهيونغ ـ نو الجنوبيون، الذين استمروا يطردون أكثر فأكثر، فقد التجأوا الى منطقة المنعطف والمنحنى الكبير للنهر الأصفر حيث راحوا يلعبون مع الأمبراطورية الصينية دور المؤتلفين معها والقوى الداعمة لها (٢٢٠ ـ ٢٦٥).

ب ـ أتراك اولون سادة الصين الشمالية (٣٠٨ ـ ٥٠٠)

دخل فريق من الهيونغ ـ نو الجنوبيين الى ما وراء جدار الصين الكبير على أنهم جنود مساعدون للصينيين أو مرتزقة. ثم اغتنموا فرصة ضعف السلالة الصينية فقام احد قادتهم بإعلان نفسه العام ٣٠٨ امبراطوراً على شمال الصين. وهذه الأمبراطورية الهونية سرعان ما إنهارت العام ٣٥٠ تحت ضربات المغول الذين خلفوها من العام ٣٥٠ الى العام ٣٨٣. وفي العام ٣٨٦ عمدت مجموعة من العرق التركي ـ الأولي وهي الطبغتش (طو ـ با) الى استيعاب سائر الزمر التركية ـ المغولية في شمال الصين وقامت بتشكيل امبراطورية جديدة في تلك المنطقة.

ج ـ امبراطورية جوان ـ جوان المغولية (٤٠٠ ـ ٥٥١)

وفي منغوليا الشمالية ساد الجوان ـ جوان، وهم من العرق المغولي، منذ العام ٤٠٠ تلك المنطقة وهددوا الأمبراطورية التركية في شمال الصين. «ومع اولئك الملوك الجوان ـ جوان نرى، وللمرة الأولى، ظهور لقبي خان وكاغان ـ

وهي إذن ألقاب مغولية حلت محل لقب شان ـ يو القديم الذي كان يستخدمه الهيونغ ـ نو وكان تالياً لقباً تركياً»[4].

د ـ إنحطاط امبراطورية الأتراك الأولين في شمال الصين وإنقسامها (حوالي ٥٠٠)

إتخذت مجموعات الهيونغ ـ نو في الصين الشمالية زمام المبادرة وشنت سلسلة هجمات وقائية ضد المغول الجوان ـ جوان، لتحول دون اقترابهم من الجدار الكبير (٤٠٠ ـ ٤٦٠) وإستمر هؤلاء في الوقت نفسه بمد حدود أرضهم على حساب أراضي الأمبراطورية القومية في جنوب الصين. وحوالي العام ٥٠٠ كانوا قد أصبحوا صينيين تماماً. وبعد هذا التاريخ راحوا يعانون من ثورات القصور والصراعات السلالية والحروب الأهلية. وفي العام ٥٣٤ إنقسموا الى فرعين تحكم كلاً منهما سلالة ملكية مجهولة.

«إن تلك الأسر، وبعدما غدت صينية، لم يعد لها علاقة بتاريخ السهب، بل على العكس بات همها معرفة كيف أن القوة التركية التي كانت بالغة الفظاظة لدى الملوك الطبغتش الأولين تراخت شيئاً فشيئاً حتى إندمجت وإنصهرت في الشعب الصيني. إنها القصة الخالدة التي سنراها تتكرر ومرات عديدة عبر العصور»[5] سواء في الصين أو الهند أو إيران أو روسيا وسواها.

هـ ـ توسع المغول الهفتاليت نحو الغرب (٤٠٠ ـ ٥٠٠)

وفي حين كانت امبراطورية المغول الجوان جوان تسود منغوليا الخارجية منذ العام ٤٠٠ فإن المغول الهفتاليت المعروفين بالهون البيض من جانب المؤرخين البيزنطيين ـ وهم زمرة من الترك ـ المغول «وأقرب إلى المغول منهم الى الترك» بحسب قول غروسيه و«قبيلة من السيتيين أي أنهم إيرانيون شرقيون منحدرون من تخوم الجبال السماوية» بحسب نظرية حديثة للمؤرخ جيرشمان ـ كانوا قد هاجروا الى الغرب وأصبحوا بعد العام ٤٠٠ أسياد تركستان الغربية. وحوالي العام ٤٤٠ بسطوا سيادتهم على سجديان (سمرقند) وإيران الشرقية وكابول. وبعد إنتصارهم على بيروز ملك الفرس (٤٨٤) أصبحوا يتدخلون في صراعات سلالة الفرس الساسانية الملكية التي تجري في القصر.

4 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 104.
5 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 108-109.

و ـ توسع هون الآرال نحو أوروبا (أتيلا = ٤٤١-٤٥٣)

إن الهيونغ ـ نو الغربيين أو هون العصر التاريخي الذين هاجروا من منغوليا حوالي العام ٤٤ ق.م. وإستقروا أولاً في تركستان الروسية ثم في سهوب شمال الآرال إنتقلوا حوالي العام ٣٧٤ الى أوروبا. ومن العام ٤٤١ الى العام ٤٥٣ فإن قائدهم أتيلا، الذي شهر الحرب على الأمبراطورية البيزنطية، غزا أوروبا الشرقية وبلاد الغال وإيطاليا. وبعد وفاة أتيلا (٤٥٣) إنهارت امبراطوريته الواسعة وإنكفأ الهون عائدين تحت قيادة أحد أبنائه نحو السهب الروسي.

٣ ـ السيادة التركية على منغوليا والتوسع نحو بلدان الغرب (٥٥١ ـ ٩٢٠)

أ ـ عالم السهوب التركي ـ المغولي في مطلع القرن السادس

في النصف الأول من القرن السادس كانت مجموعة السهوب الآسيوية ـ الروسية بكاملها تحت سيادة المغول والأتراك ـ الأولين الذين كانوا يتقاسمون السيادة على تلك المساحات الأرضية الشاسعة. وكانت منطقة منغوليا ومنذ العام ٤٠٠ مرتع نفوذ الخانات والكاغانات الجوان ـ جوان وهم من العرق المغولي. أما الهفتاليت، وهم أيضاً من العرق المغولي، فقد كانوا ومنذ العام ٤٠٠ أسياداً على تركستان الغربية التي بسطوا منها بعد العام ٤٤٠ سيطرتهم على سجديان وإيران الشرقية وكابول. وفي حوالي ذلك العام نفسه فإن الأتراك الأولين الممثلين بهون أوروبا كانوا يسودون السهب الروسي حيث إنكفأوا بعد مغامرة أتيلا في أوروبا وموته (٤٥٣).

أما الأتراك الأولون، الذين سادوا شمال الصين بدءاً من العام ٣٠٨ (الهيونغ ـ نو الجنوبيون ثم الطبغتش) فإنهم بعد العام ٥٠٠ تحولوا تماماً الى الصينية. لكن ومن منغوليا الأم وبعد العام ٥٥٠ ستخرج عشيرة جديدة من الأتراك الأولين هم التو ـ كيو وسيعيدون سيادة عرقهم على منغوليا ويعطون تسمية أتراك لكل شعوب هذه الأسرة اللغوية.

ب ـ صعود نجم التو كيو أو الأتراك الأولين (٥٥٠).

وبين العام ٥٢٠ والعام ٥٤٠ عملت النزاعات السلالية على إضعاف أمبراطورية المغول الجوان جوان وأثارت لدى قبائل الأتراك الأولين الخاضعة

لتلك الأمبراطورية حركات تمرد. وأفادت من تلك الأحداث إحدى الزمر التابعة التي كانت تسكن منطقة الطاي هم «التو ـ كيو، وهؤلاء شعب من العرق التركي أعطى إسمه (تركي) لمجموعة الأمم التي هي من الأصل التاريخي نفسه» (غروسيه) وراح هذا الشعب من ثم يزداد شأنا.

ج ـ الأتراك التو كيو سادة منغوليا (٥٥١)

في العام ٥٥١ تحالف بومين قائد التو كيو المغولية مع إحدى سلالات الأتراك المتحولة الى الصينية في شمال غرب الصين التي زوجته من إحدى أميراتها. ونتيجة هذا التحالف تمكن بومين من سحق مغول الجوان جوان الذين كانوا يسودون منغوليا منذ قرن ونصف القرن. فهاجر هؤلاء الجوان جوان جنوباً حيث استعانت بهم الصين لحراسة حدودها الشمالية.

«وهكذا إنتقلت أرض منغوليا الأمبراطورية القديمة من الجوان ـ جوان الى التو ـ كيو أي من المغول الى الترك. وقد إتخذ بومين لنفسه لقب كاغان أو خاقان الأمبراطوري وظل مقر الأمبراطورية الجديدة في الأورخون الشمالي في تلك المنطقة الجبلية التي حازت، منذ قدماء الهيونغ ـ نو (الهون) حتى الجنكيزخانيين على الأفضلية معظم الأحيان كمقر لمركز قيادة زمرهم»[6].

د ـ إقتسام أراضي أمبراطورية أتراك منغوليا (٥٥٢)

لم يقدر لبومين الخاقان التركي الجديد ان يعيش لينعم بتألق أسرته وإنتصار العرق الذي ينتمي اليه. وإثر وفاته (٥٥٢) إقتسمت أملاكه بين ولده وأخيه اللذين ستكون منطقة نفوذ كل منهما في أساس الخانتين التركيتين الكبيرتين اللتين ستنشآن لاحقاً في منغوليا وهما: خانة التو ـ كيو الشرقيين وخانة التو كيو الغربيين. وحصل موهان (٥٥٣ ـ ٥٧٢) إبن بومين موقتاً على منغوليا متخذاً لقب خاقان الأمبراطوري وأما عمه إستامي (٥٥٢ ـ ٥٧٥) فإمتلك الجزء الغربي منها تحت لقب بيغو الأميري.

هـ ـ الأتراك الغربيون وعلاقاتهم الودية مع بيزنطية

حوالي العام ٥٦٥ أصبح التو كيو الغربيون والفرس الساسانيون متجاورين. ولن تلبث بيزنطية، وهي العدوة التقليدية لفارس، أن تسعى الى التحالف مع التو كيو الذين كانوا من جهتهم يسعون للحصول على حرية

6 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 126.

تجارة الحرير عبر الأراضي الايرانية وكانت تلك التجارة حكراً على بلاد فارس. لذا ومنذ العام ٥٦٧ كانت الوفود اليونانية والتركية تتنقل غالباً بين الدولتين. وحوالي العام ٥٩٠ إنتزع التوكيو الغربيون من الفرس مقاطعة بختريان أو طخارستان.

و ـ تنافس الأتراك الغربيين والأتراك الشرقيين

حوالي العام ٥٨٣ فإن قائد التوكيو الغربيين (تركستان)، والذي يحمل لقب يبغو كان قد أستمر حتى ذلك الوقت بالاعتراف بتفوق خاقان التوكيو الشرقيين عليه، إلا أنه إنقلب على هذا الأخير وإتخذ لنفسه لقب خاقان. إن هذا الانفصال الذي باركته الصين، والذي كان من شأنه تحطيم وحدة التوكيو المعنوية وشق وحدتهم السياسية، سيجعل من الخانتين الشرقية والغربية امبراطوريتين تركيتين متميزتين بعضهما عن بعض ومتنافستين، حيث ستظلان باستمرار تارة في حالة عداء وطوراً فريسة حروب اهلية. إن هذه الأحداث ستوفر للأمبريالية الصينية الانتصار في آسيا الشمالية.

«ففي منغوليا، كما في تركستان الغربية، فإن الصين نجحت، أيام اسرة سوي الملكية (٥٨٩ ـ ٦١٢) ومن غير أن تلجأ الى حروب كبيرة بل إكتفت بالمناورات العادية، في تفكيك القوة التركية وإزاحة كل الخانات العاصين وتمكنت من أن تنصب على العرش خانات خاضعين لسيادتها وحسب»[٧].

ز ـ الأتراك الشرقيون تحت الوصاية الصينية

بعد فترة من الإضطرابات والحروب الأهلية في الصين (٦١٢ ـ ٦٢٤) قام خلالها التوكيو الشرقيون بإطلاق زمرهم حتى قلب أمبراطورية الصين، إستعادت هذه الأمبراطورية قوتها تحت حكم أسرة ملكية جديدة دمرت خانة التوكيو الشرقيين وإحتلت خانة التوكيو الغربيين.

وفي العام ٦٣٠ دخل الأمبراطور الصيني تاي ـ تسونغ (٦٢٧ ـ ٦٤٩)، باني العظمة الصينية في شمال آسيا ومؤسس أسرة تانغ الملكية، بجيشه الى منغوليا الداخلية حيث سحق التوكيو وأسر خاقانهم. وخلال العشرين سنة التالية إنضوى الأتراك الغربيون، الذين إنقسموا الى مجموعتين، بدورهم تحت الوصاية الصينية.

7 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 135.

ومع وصول تاي ـ تسونغ الى السلطة «فإن صيناً غير منتظرة صيناً ملحمية برزت فجأة في آسيا المأخوذة بالدهشة. وهذه الصين، بدل أن تتحالف مع البربروتدفع ثمن إنسحابهم غالياً كما كان يحصل في الماضي، فقد أرعبتهم بدورها. ذلك أن الشعب الصيني، الذي إضطر منذ ثلاثة قرون الى تكبد الغزوات التركية المغولية إستوعب في نهاية الأمر تلك الزمر المنتصرة. فتغذى وتنشط من عرقهم وإرتد لتوه ضد شعوب السهب مضيفاً الى تفوقه الحضاري العريق الهائل، القوة التي كان يستمدها منهم»[8].

ج ـ تحرر الأتراك الشرقيين وإعادة تكوين وحدتهم السياسية (٦٨٣)

من العام ٦٦٥ الى العام ٦٨٣ إنتاب السلالة الملكية الصينية ضعف نجم عنه طبيعياً تراجع عام في نفوذها في شمال آسيا. وإستعادت مجموعتاالتوكيو الغربيتان إستقلالهما بعدما فقدتاه العام ٦٣٠. وأما خانة التوكيو الشرقيين من جهتها، والتي دمرت في ذلك التاريخ نفسه، فقد أعادت تكوين نفسها كدولة مستقلة تحت سلطة خاقان جديد هو كتلوك سليل الأسرة الملكية القديمة.

وبدءاً من العام ٦٨٣ بدأ التوكيو الشرقيون هجماتهم وغزواتهم ضد الصين وكانوا ينهبون خلالها مناطقها الحدودية. كما أن أحد خاقاناتهم، وهو باكتشور أو قاباغان (٦٩١ ـ ٧١٦)، الذي أوصل ثروة بلاده الى الأوج، نصب نفسه حكماً في المنازعات السلالية داخل البلاط الصيني. فكانت غزواته داخل الأراضي الصينية تزيد من ثروة خزينته سواء من الأسرى أو الغنائم. وحوالي العام ٧٠٠ كان قد أخضع فئتي تو ـ كيو الغربيتين لسيادته وأعاد تكوين الأمبراطورية التركية الكبرى التي كانت قائمة العام ٥٥٠ فعادت تمتد من جديد من الحدود الصينية والمنشورية حتى بلاد ما وراء النهر.

ط ـ إضطرابات وتمردات في منغوليا

وعند موت الخاقان باكتشور القوي، الذي أرهق شعبه بقسوته وظلمه، ثارت كل الزمر التابعة. فهاجمها خلفه موكيلين أو بيلجا (٧١٦ ـ ٧٣٤) وهزمها وأعادها الى كنفه. وقد إنتهت حروبه مع الصين بإتفاقية موقعة العام ٧٢١ ـ ٧٢٢ أرست علاقات صداقة بين الخصمين.

8 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 139, 140.

ي ـ نقوش الأورخون في شمال منغوليا

وفي العام ٧٣١ أمر موكيلين بنقش رثاء على ضريح أخيه كلتجين، الذي كان له الفضل في إيصاله الى العرش، وذلك في قره قوروم عند منابع الأورخون. ويعتبر نصب هذا الرثاء، الذي اكتشف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتم فك رموزه، أول وثيقة تاريخية باللغة التركية كتبها الأتراك أنفسهم.

«إن تلك النقوش ـ وهي أقدم وثيقة عرفها الأدب التركي ـ مدونة بكتابة تسمى خطأ الكتابة الرونية وهي مشتقة من الأبجدية الآرامية عن طريق أبجدية سجديان القديمة. . . كما تم إكتشاف نقوش أخرى بالحرف الروني التركي في حوض نهر اليانساي في سيبيريا. ويقدر العالم برتولد أن هذه الكتابة التركية الأولى قد تعود الى القرن السابع أو السادس من عهدنا»[9].

إن نقوش الأورخون، والتي هي بمثابة ملحمة الأتراك القدماء، لا تتكلم إلا عن فترة نصف قرن تمتد من العام ٦٣٠ الى العام ٦٨٠. وهي تفيدنا بأن الأمبراطورية التركية «كانت خاضعة لسلالة وليس لشخص واحد» وأن الخانات الترك في الغرب كانوا مستقلين تماماً في حين أن خانات الشرق، الخاضعين لأمبراطورية الصين، كانوا قد استعادوا لتوهم إستقلالهم تحت سلطة خانات جدد. وكان هؤلاء الخانات يفرضون سلطتهم بالقوة على الشعب، الذي لم يكن خضوعه مضموناً، إلا بفعل الحملات الحربية والغنائم المنهوبة خلالها.

«إن نقوش الأورخون أظهرت صفة جديدة في تاريخ إنشاء الدول البدوية. . . فأحد الظروف الاستثنائية الذي كان له دور في تأسيس تلك الدول كان صراع الطبقات: التوتر في العلاقات بين الأغنياء والفقراء، بين البكوات وعامة الشعب. . . إن نقوش الأورخون تظهر أنه وفي أيام السيادة الصينية كانت الأرستوقراطية التركية، حرصاً على إمتيازاتها، تتكيف مع النير الأجنبي أكثر من عامة الشعب وتفرط بعاداتها القومية بسهولة أكبر»[10].

9 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 161.

10 Barthold, *op. cit.*, p. 9.

ك ـ الأتراك الويغور يحلون محل التوكيو الشرقيين سادة على منغوليا (٧٤٤ ـ ٨٤٠).

إن موت الخاقان موكيلين (٧٣٤) مسموماً بيد أحد وزرائه، أثار في منغوليا سلسلة من الإضطرابات غرقت فيها أمبراطورية التوكيو الشرقيين. وتمردت القبائل الرئيسية الثلاث التابعة، من العرق التركي، وهي البسميل والويغور والكرلوك وقتلت الخاقان الجديد وسحقت قبائل التوكيو التي لجأ الناجون منها الى الصين (٧٤٣). وخلف الأتراك الويغور، يساندهم أبناء جنسهم الكرلوك، الأتراك التوكيو في السلطة كسادة على امبراطورية منغوليا. وإن الخاقان الويغوري الجديد: كتلوك بيلجا (٧٤٤ ـ ٧٤٥)، والذي أيد البلاط الصيني توليه العرش، أقام مقره في الأورخون الأعلى قرب قره قوروم المقبلة مقر الجنكيزخانيين.

«وهكذا حلت أمبراطورية الويغور محل أمبراطورية التوكيو الشرقيين وقد استمرت قرناً (٧٤٤ ـ ٨٤٠). إن ما حصل على أي حال لم يكن سوى إحلال شعب تركي، في السيادة على منغوليا، محل شعب تركي آخر، على صلة قربى وثيقة منه. إلا أنه وعلى عكس التوكيو الذين كانوا غالباً جداً جيراناً خطرين بالنسبة الى الصين، فإن الويغور تصرفوا أولاً كمتعاملين أمينين مع سلالة تانغ الصينية ثم كمساعدين مفيدين لها وفي النهاية كحماة لا غنى عنهم، وإن كانوا أحياناً متطلبين جداً»[11].

ل ـ الأتراك والعرب يهزمون الصين على ضفاف نهر طالاس (٧٥١)

وأما التو ـ كيو الغربيون، وقد نجحت مجموعتاهما الكبيرتان بأن بقيتا مميزتين بإستعادة استقلالهما حيال الصين بدءاً من العام ٦٨٣، فقد أعيدوا إثر حملات عدة عليهم بين العام ٧١٤ و٧٤٤ الى التبعية الصينية.

وفي العام ٧٥٠ تمرد التودوم (الملك) التركي طاشقند، وهو تابع للصين، ضد هذه الأخيرة بعدما استنجد بالأتراك الكرلوك المجاورين له شمالاً وبالقوات العربية المرابطة في سجديان جنوباً. وفي العام ٧٥١ سحقت هذه القوى الثلاث المتحالفة الجيوش الصينية على ضفاف نهر طالاس. وكان بوسع الصينيين تدارك تلك الكارثة لولا الثورات والصراعات الداخلية التي كانت تشل الصين في ذلك العصر وتمنعها من الرد.

11 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 162.

«وبحسب ملاحظة لبرتولد فتلك المعركة التاريخية قررت مصير آسيا الوسطى. وعوض ان تصبح تلك المنطقة صينية، كما كان مجرى الأحداث يوحي بذلك، فإنها اصبحت مسلمة... فالصين التي كانت ضحية حرب أهلية دامت ثماني سنوات (٧٥٥ ـ ٧٦٣) خسرت دفعة واحدة كل امبراطورية آسيا الشمالية»[12].

م ـ أمبراطورية الويغور التركية تعتنق المانيشية

وبعدما أصبحت امبراطورية الويغور التركية القوة المسيطرة في آسيا الشمالية باتت تتعامل مع الصين على قدم المساواة. وأما في الميدان الروحي، فإن هذه الأمبراطورية البربرية إنفتحت على المانيشية بحيث اصبحت دين دولة الويغور.

«إن التبشير بالمانيشية، مع كل ما تتضمنه من عناصر فلسفية مسيحية ومزدية وفن ايراني أيضاً، لا بد أنها اسهمت في ترقي الويغور الحضاري. وفي الوقت الذي أخذ فيه الويغور من إيران أو إيران الخارجية دينهم المانيشي فإنهم اقتبسوا من المنطقة نفسها أيضاً، وتحديداً من ما وراء النهر، الأبجدية السجديانية المأخوذة من السريانية وإشتقوا منها كتابة خاصة هي الكتابة الويغورية: ليستبدلوا بها في هذا القرن نفسه، أي القرن التاسع، الأبجدية التركية القديمة (تو كيو) المستخدمة في الأورخون. وبفضل هذه الكتابة الجديدة انتجوا أيضاً أدباً قومياً، هو الأول من حيث تاريخه من بين الآداب، التي ترجموا بها عن اللغة الايرانية نصوصاً مانيشية عدة، ومن السنسكريتية والكوشية أو من الصينية نصوصاً بوذية عدة»[13].

ن ـ الأتراك الكيرغيز يحلّون محلّ الويغور (٨٤٠ ـ ٩٢٠).

إن الويغور، وقد إسترخوا بفعل الحضارة، هزموا العام ٨٤٠ وأُطيحت أمبراطوريتهم وإحتلت عاصمتهم من جانب إخوة لهم في العرق ظلوا متوحشين هم الأتراك الكيرغيز وقد أتوا من شمال ينيساي. وبعدما طرد الويغور من منغوليا فإنهم تشتتوا في واحات شمال تاريم وفي التركستان الشرقية حيث نشروا المانيشية.

12 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 171-172.
13 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 174, 175, 176.

س ـ المغول الكي طان يطردون الكيرغيز (٩٢٠)

في حوالي العام ٩٢٠ فإن الكيرغيز، الذين أرجعوا منغوليا إلى عصر البربرية، طردوا بدورهم من الأراضي التي إحتلوها وأقصوا إلى سهوب ينيساي من حيث أتوا على يد الكي طان وهم زمر من العرق المغولي.

٤ ـ الأتراك والإيرانيون في آسيا الوسطى (٩٢٠ـ ١٠٣٢)

أ ـ إنتشار الأتراك الجغرافي خلال القرن العاشر

كانت آسيا الوسطى خلال القرن العاشر، بإستثناء منغوليا حيث منذ العام ٩٢٠ حلت السيادة المغولية محل سيادة الأتراك الكيرغيز، تحت سيطرة خمسة شعوب تركية هي: الويغور في تركستان الشرقية، والغوز أو الأوغوز من بحر الخزر وحتى المجرى الأوسط لنهر سرداريا، والكرلوك في فرغانا الشرقية والطوغوز غوز أو التوكوز أوغوز إلى الشرق من الكرلوك وحتى الصين، والكراخانيد في كشغاريا في تركستان الشرقية.

ب ـ إنتشار الإيرانيين الجغرافي في القرن العاشر

وفي غرب هذا القطاع التركي الواسع في إيران الشرقية كانت تحكم، كما رأينا، سلالة السامانيين الإيرانية المسلمة التي ظلت تهيمن حتى العام ٩٩٩ على تركستان الغربية (تركستان الروسية الحالية) التي كانت تسمى يومها بالإسم العربي: ما وراء النهر.

وهكذا فإن الحدود التي كانت تفصل بين تركستان الشرقية وتركستان الغربية في القرن العاشر هي الحدود العرقية ـ اللغوية بين الفرس والأتراك وفي الوقت نفسه الحدود الزراعية بين مناطق الزراعة ومناطق المرعى أي بين حضر إيران وبدو طوران (تركستان).

وطوال فترة حكمهم كلها (٩٠٣ ـ ٩٩٩) فإن «السامانيين، وقد آمنوا بدورهم كمدافعين عن القومية الإيرانية، فقد أعادوا الصراع الدهري بين إيران وأتراك السهب السيبيري ـ التركستاني... فأجبروا المطامع التركية ـ المغولية على التراجع بإنتظار لحظة أنسب ناهيك بأنهم شعوا بالنفوذ الإيراني على آسيا الوسطى بأسرها وعندما قيض للترك المغول الدخول إلى فارس كانوا قد أصبحوا في منتصف تحولهم إلى الإيرانية»[14].

14 Grousset, «La civilisation iranienne», *Les premières dynasties iraniennes*, p. 173-179.

ج ـ إعتناق الأتراك الكرخانيين والأوغوز الإسلام (٩٥٥)

إن سلالة الكرخانيين التركية، والتي قد تكون جزءاً من شعب التوكوز أوغوز وتسود على كشغاريا في التركستان الشرقية، كانت أول سلالة تركية تعتنق منذ العام ٩٥٥ الإسلام. وسرعان ما تبع الكرخانيين في اعتناقهم الإسلام جزء من الأتراك الأوغوز الذين كانوا يعيشون على الضفة السفلى من نهر الفولغا. «وبشكل عام بدا اعتناق الإسلام عفوياً من قبل شعبين تركيين (الكرخانيين والأوغوز) وظاهرياً كنصر للإسلام: إذ بفضل هذا الاعتناق فإن المقاطعات الإسلامية القديمة أصبح لها بعد ذلك جيران مسلمون نحو الشمال والشرق حتى لاصبح بإمكاننا أن نستنتج أن الإسلام حصل بهذا على حلفاء جدد في صراعه ضد العالم غير الإسلامي. لكن في الواقع كانت الأوضاع غير ذلك تماماً حيث أن الشعبين التركيين اللذين اعتنقا الإسلام سرعان ما وجّها في اللحظة نفسها تقريباً أسلحتهما باتجاه تلك البلدان نفسها التي جاء الإسلام منها إليهما»[15].

د ـ مملكة غزنة التركية في أفغانستان تدخل مسرح الأحداث (٩٩٥)

وحوالي العام ٩٦٢ أسس رقيق تركي سابق أعتق يدعى ألبتجين في غزنة في أفغانستان دولة تركية تحت سيادة السامانيين. وبعد موته العام ٩٦٣ حكمت هذه الدولة من قبل رقيق سابق تركي آخر بدءاً من العام ٩٧٧ هو سبوك تيجين الذي إستولى على طخارستان وبدأ بفتح كابول وكانت تلك أول دولة تركية متحولة إلى الإسلام على الأرض الإيرانية.

وفي العام ٩٩٢ إستنجد أحد الملوك الإيرانيين المتمرد على سيده السامانى بالأتراك الكرخانيين الذين دخلوا إلى بخارى من دون السعي إلى الإستقرار فيها. ولضمان عدم حصول غزو كرخاني آخر، فإن الملك السامانى إستجار بتابعه الإسمي سبوك تيجين قائد أتراك غزنة في أفغانستان. فأخذ هذا القائد سلالة السامانيين تحت حمايته لكنه إستولى في المقابل على مقاطعة خراسان (٩٩٥).

هـ ـ الأتراك الكرخانيون سادة ما وراء النهر (٩٩٩).

وبعدما تقلصت منطقة نفوذ الإيرانيين السامانيين لتقتصر على ما وراء النهر فإنها وجدت نفسها محصورة بين دولة الأتراك الغزنويين جنوباً ودولة

15 Barthold, *op. cit.*, p. 63.

الأتراك الكرخانيين شرقاً. وفي العام ٩٩٩ مشى الكرخانيون ضد الإيرانيين السامانيين وإنتزعوا منهم سمرقند وبخارى وثبتوا بشكل وطيد سيادتهم على ما وراء النهر. فزالت الدولة السامانية من الخارطة. وإن روح التمرد التي ولدتها الميول الإستبدادية لدى السلالة السامانية في نفوس أرستوقراطية السكان الأصليين شجعت الفتح التركي ـ الكرخاني.

«وعموماً فإن المحاولات التي قام بها السامانيون لتحريض الجماهير الشعبية للدفاع عن الدولة الإيرانية في وجه العدو الخارجي لم تلقَ أية حماسة. فقد أعلن عدد من العلماء المسلمين مبدأ مفاده أن الشعب ليس ملزماً بالمشاركة في الدفاع عن الدولة إلا في حال تعرض بلد مسلم للإعتداء عليه من قبل الكفار. وبما أن الكرخانيين مسلمون فلم يكن للمسلمين أي سبب يوجب عليهم القتال حتى الموت»[16].

ومن جهة أخرى فإن الأتراك كونهم إعتنقوا الإسلام لتوهم، فقد بدوا أكثر حمية دينية من الأمراء المسلمين في بلدان آسيا الغربية... ولذا راح الأتراك، وكالبربر في المغرب، يمثلون عامة في الشرق دور حماة الإسلام في البلدان التي كان فيها معتنقو هذا الدين في صراع مع السلطة»[17].

و ـ امبراطورية غزنة التركية ـ الافغانية (٩٩٩ ـ ١٠٣٢)

إن زوال دولة السامانيين الإيرانية (٩٩٩) أقام حدوداً مشتركة بين أراضي دولتي الغزنويين والكرخانيين. وبرغم كون هاتين الدولتين مسلمتين فإنهما لم تلبثا أن صارتا اختين عدوتين. فالكرخانيون الذين «كانوا يعتبرون الغزنويين، أولئك الأرقاء السابقين دخلاء على السلطة» (غروسيه)، كانت تغريهم ثروات الهند وكنوزها منذ فتح البنجاب (١٠٠٤ ـ ١٠٠٥) التي ضمها السلطان الشهير محمود الغزنوي (٩٩٨ ـ ١٠٣٠) إلى منطقة نفوذه الأفغانية والخراسانية. وكانت العربية هي اللغة الرسمية في دولة الغزنويين.

«إن الغزنويين، الذين طبعوا بعمق بالطابع الأفغاني ـ بدءاً من سلطانهم الشهير محمود الغزنوي ـ تصرفوا كملوك حقيقيين لأفغانستان. وكان على السلطان محمود، وهو سيد هذه الأراضي المرتفعة التي تشكل بين إيران والهند

16 Barthold, *op. cit.*, p. 67.
17 Barthold, *op. cit.*, p. 68-69.

وتركستان نقطة إنطلاق لكل آسيا، أن يحارب وينتصر في ثلاثة إتجاهات معاً»[18].

لذا فإن الحروب المستمرة (١٠٠٦ ـ ١٠٣٢) بين الترك الغزنويين وإخوانهم الترك الكرخانيين، أنهكت في النهاية الدولتين معاً لصالح الأتراك السلاجقة.

ز ـ السلطان التركي ـ الأفغاني محمود (٩٩٨ ـ ١٠٣٠)

«كان محمود الغزنوي راعياً للعلوم والفنون ومطلعاً على حمى الحركة الأدبية الكبيرة في عصره أي النهضة الأدبية العربية ـ الفارسية أو الفارسية الصرف التي ظهرت في عهده. فجمع في بلاطه في غزنة أشهر كتّاب ذلك العصر... ومنهم الفردوسي أكبر شاعر ملحمي في إيران ومؤلف الشاهنامة الخالدة الذي أقام أيضاً في بلاطه...

كان محمود الغزنوي إحدى الشخصيات الأكثر تمثيلاً لبلده وزمنه، وكان في آن، مثال الفارس التركي ـ الأفغاني والمسلم التقي وراعي العلوم والفنون المزهو... فكان أول من دخل عالم القصص الأسطورية الهندية الذي كان منذ قرون يلازم مخيلة القادة فضلاً عن العلماء المسلمين. ولا بد من أن نضيف أنه كان منشىء الهند المسلمة الحقيقي التي نسميها اليوم باكستان»[19]

٥ ـ الأوغوز أو الغوز وقبائلهم من بشانقة وسلاجقة وعثمانيين.

إن الأوغوز أو الغوز هم إخوة وأنسباء التوكيو أو الأتراك الأولين والذين أسسوا ما بين القرن السادس والقرن الثامن أول أمبراطورية تركية كبرى في منغوليا خلفت الأمبراطورية المغولية الأولى في العصر التاريخي. إن الأوغوز المجردين من أي تنظيم وأي مفهوم للدولة كان يشار إليهم في نقوش الأورخون على أنهم أعداء لخانهم ومتمردون. وأما قبائلهم الضعيفة التضامن فيما بينها فكانت تمضي للقتال كل لحسابها، بعضها في روسيا الجنوبية والآخر في إيران وآسيا الصغرى.

إن الأتراك الأوغوز، وقد هاجروا من منغوليا بعد سقوط الأتراك الويغور (٨٤٠) وبخاصة بعد سقوط الأتراك الكيرغيز (٩٢٠)، إحتلوا في

18 Grousset, «La civilisation iranienne», *op. cit.*, p. 287 et 340.
19 Grousset, «La civilisation iranienne», *op. cit.*, p. 287-289.

القرن العاشر المنطقة الواقعة بين بحر الخزر والمجرى الأوسط من نهر سرداريا. وقد كانوا أقل من أبناء جنسهم الكرخانيين في مجال الثقافة لكنهم كانوا يحتفظون في المقابل بإخلاص بمزايا الحياة القومية البدائية الخاصة بهم. فكانوا رعاة كغيرهم من المجموعات البدائية ويفتقرون إلى التنظيم وينتقلون من مكان إلى آخر. وكان قائدهم الأعلى يحمل لقب سوباشي (قائد الجيش)، وليس لقب خان. ومنذ القرن الحادي عشر أي بعد قرنين تقريباً من هجرتهم «فإن الأوغوز لم يعودوا يحتفظون بأي تقليد يتعلق بسيادة شعبهم السابقة على منغوليا: وإن منطقة إيزيك ـ كول المجاورة كانت بمثابة وطن الترك، ولم يعد جد الأتراك الأسطوري ولا ذكريات الأوغوز التاريخية تمت بصلة إلى المناطق الواقعة أبعد إلى الشرق»[20].

«في السهوب الواقعة شرق بحر الخزر لم يتوصل الأوغوز ولا سلائلهم التركمان إلى تحقيق أي وحدة ولم يكفوا عن مقاتلة بعضهم بعضاً. وقامت جماعات منفردة من شعب الأوغوز بفتوحات واسعة وهاجرت إلى بلدان بعيدة. لكن أياً من تلك الحركات لم يشمل مجموع الشعب وبمفارقة غريبة فإن هؤلاء الأوغوز، الذين لم ينجحوا يوماً في الإتحاد فيما بينهم لتشكيل وحدة سياسية، قيض لهم بالذات تأسيس أقوى الأمبراطوريات التركية وأكثرها ديمومة بما فيها الأمبراطورية العثمانية»[21].

لقد كانت قبائل الأوغوز تلك وتحت أسماء البشناق والسلاجقة والعثمانيين هي التي ظهرت في أوروبا والشرق الأدنى على مسرح التاريخ.

إن البشناق هم الأوغوز الأولون الذين هاجروا في نهاية القرن التاسع نحو المنطقة التي تشكل روسيا الجنوبية اليوم، حيث أن غزواتهم ضد جيرانهم مذكورة بوفرة في الحوليات الروسية. وحوالي القرن الحادي عشر أقبلت هجرة جديدة للأوغوز يشار إليها في المصادر البيزنطية تحت إسم أوز (أوزوي) ومن قبل كتّاب الحوليات الروس تحت إسم تورك وطردت نحو الغرب أبناء جنسها من روسيا الجنوبية وتبعتها نحو شبه جزيرة البلقان حيث لاذت تلك المجموعات.

20 Barthold, *op. cit.*, p. 84.
21 Barthold, *op. cit.*, p. 81.

٦ ـ إرتقاء الأتراك السلاجقة الحكم (١٠٤٠ ـ ١٠٥٥)

إن أكثر العشائر الغوز تألقاً كانت عشيرة السلاجقة نسبة إلى إسم قائدها سلجوق أو (سلتشوق) والتي تنتمي إلى قبيلة الأتراك الكينيك إحدى عشائر الأوغوز الأربع والعشرين. وحوالي العام ٩٨٠ كان سلجوق وعشيرته قد إنفصلوا عن مجموع عشائر الغوز وحلوا عند حدود بلاد ما وراء النهر السامانية حيث تخلوا عن الديانة الشامانية المغولية ـ التركية وإعتنقوا الإسلام.

وكان الأتراك السلاجقة يتدخلون غالباً في المعارك الناشبة بين الأتراك الكرخانيين والإيرانيين السامانيين ليدعموا تارة هذا وطوراً ذاك من الجانبين. وبعد زوال دولة السامانيين (٩٩٩) وإقتسام أراضيها فإن السلاجقة، المخيمين منذ العام ٩٨٥ شمال شرق بخارى، حاولوا الإفادة من الإضطراب العام الذي سببته الصراعات الأخوية بين الكرخانيين والغزنويين فهاجروا في مطلع القرن الحادي عشر إلى داخل أمبراطورية الغزنويين التركية حيث كانوا ينطلقون منها في عمليات سلب دون إثارة إضطرابات سياسية.

أ ـ السلاجقة أسياد إيران الشرقية (١٠٤٠)

وحوالي العام ١٠٢٥ دخل أحد قادة السلاجقة، ويدعى «أرسلان (أي الأسد وهو إسمه التركي) وإسرائيل (إسمه الإسلامي) ويحمل لقب يبغو، كمساعد في خدمة القرهاني المحلي علي ـ تيجين ضد محمود الغزنوي»[٢٢]. وفي العام ١٠٣٨ قام قائد سلجوقي آخر هو طغرل بك، والذي رفض السلطان الغزنوي إقطاعه أراض في خراسان، بإحتلال نيشابور وفي العام ١٠٤٠ سجل إنتصاراً كبيراً على الغزنويين في دندناخان فتخلى له الغزنويون عن خراسان وإيران الشرقية. وبعد هذا التاريخ لم يعد طغرل قائداً قبلياً يقدم عونه لرؤساء الدول المجاورة بل ظهر كملك وأصبح إسمه يتردد خلال صلاة يوم الجمعة في مسجد نيشابور.

«وهكذا غدا السلاجقة تلك الزمرة من الأوغوز، والتي لا ماضي لها والأفقر من كل العشائر البدوية التي اعتنقت الإسلام حديثاً، بين ليلة وضحاها سادة إيران الشرقية. لقد كان ذلك حظاً غير متوقع كان يمكن أن يؤدي إلى كارثة بالنسبة إلى الحضارة لو لم يكن على رأس هذه العشيرة بعض القادة الأذكياء ممن أدركوا بديهياً تفوق الحضارة العربية ـ

22 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 204.

الفارسية. وعوضاً عن هدمها فإنهم هبوا للدفاع عنها وحكموها بنظام وعندما دخل طغرل بك نيشابور فإنه أمر بان تقام الخطبة على إسمه يوم الجمعة معلناً بذلك بأنه بات ولياً على المؤسسات الإسلامية. وإستمرت أعمال الفتح على طريقة السهب العشائرية حيث يجهد كل أمير لإحتلال منطقة لحسابه الخاص. . . مع الإعتراف بأولوية طغرل بك»[23].

ب ـ الأتراك السلاجقة سادة إيران الغربية والخلافة العباسية في بغداد (١٠٥٥)

وفي حوالي ذلك العصر كانت إيران الغربية، كما نعلم، في أيدي السلالة الإيرانية البويهية (٩٣٢ ـ ١٠٥٥) التي كان رئيسها الذي ما يزال متمسكاً بالعقيدة الشيعية المنشقة يحكم في بغداد حاملاً لقب سلطان، خلافة العباسيين السُنية.

وبعدما إحتل طغرل بك العراق العجمي (١٠٥١) أقام مقره في أصفهان. وفي العام ١٠٥٤ حصل على إعتراف سادة أذربيجان به وفي العام (١٠٥٥) دخل بغداد بناء على طلب الخليفة العباسي القائم الذي كان يبغي التخلص من الوصاية الفارسية البويهية.

وبعدما سحق طغرل تمرداً قام به إبن عمه وآخر قام به قائد حرس الخليفة الذي كان قد عاود إحتلال بغداد وأعلن سقوط العباسيين وقيام دولة فاطميي القاهرة (١٠٥٨) فإنه أي طغرل دخل بغداد ظافراً وأعاد الخليفة العباسي القائم إلى العرش. وهلل له العالم السني كبطل للعقيدة السنية الإسلامية المستقيمة الرأي وباعث الخلافة وإعترف به الخليفة العباسي كسلطان أعلى يتمتع بكل الصلاحيات ويحمل لقبي الشرف «ملك الشرق والغرب» و«ملك الفرس والعرب».

«فيكون أن السلطنة التركية حلت محل الإمارة الفارسية كرديف زمني للخلافة العباسية العربية الروحية، وقيض لهذا الإستبدال أن يدوم طويلاً لا سيما وأن الأتراك، وهم مهتدون حديثاً إلى الإسلام، كان من حسن طالعهم، وعلى عكس الإيرانيين «المهرطقين»، أن يجاهروا بالعقيدة السنية، لا لأنهم متعصبون. . . وإنما لأنهم رأوا من المناسب، عندما أرادوا التوسع بإحتلال

23 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 205.

الأراضي من جهة الغرب، بأن يحيوا ويشرعوا النزعة التوسعية التركية القديمة بحجة الجهاد الإسلامي المقدس»[٢٤].

ج ـ الدولة التركية ـ السلجوقية، تكوين سلالي عسكري وإقطاعي

وبرغم القوة المنظمة التي كانت تتمتع بها عشيرة السلاجقة الأوغوز «الذين كانوا أمراء فاتحين وليس رعاة كأسلافهم» فإن الأمراء السلاجقة اهتموا أولاً «بتوحيد السلطة فيما بينهم». فأمبراطوريتهم الأولى في القرن الحادي عشر أسسها أخوان هما حفيدان لسلجوق «كان يتردد اسم كل منهما في آن واحد في خطبة الجمعة ويضربان على العملة أحدهما في نيشابور والثاني في مرو. . .

ومما يحمل مغزى خاصاً أن سلائل سلجوق لم يجدوا دعماً كبيراً في تطلعاتهم الأمبريالية من قبل الأوغوز إخوتهم في العرق ممن وصلوا الى إيران قبلهم: إذ عندما طلبت سلالة سلجوق من هؤلاء الاعتراف بسلطتهم أجاب هؤلاء الأوغوز بالرفض الصريح ولم يعلنوا خضوعهم إلا بالقوة»[٢٥].

ويضيف برتولد بأنه ليس لدينا أي مؤشر يسمح بالاستنتاج بأن الشعب التركي كان يرى في السلاجقة ملوكاً له، متحدرين من عرقه أو أن هؤلاء السلاجقة كانوا يحاولون الاستناد الى مفهوم قومي تركي. «إن السلاطين السلاجقة كان بوسعهم معاملة الترك الكرخانيين كتابعين، لكنهم لم يتوصلوا أبداً الى صنع اتحاد متين بين كل الترك المسلمين في سبيل إقامة أمبراطورية واحدة. وكان يستحيل بلوغ هذه النتيجة: حتى في ذلك العصر كان الفارق كبيراً جداً بين أتراك آسيا الوسطى والأوغوز المهاجرين الى الغرب. حتى أن الأوغوز لم يكونوا رعايا مخلصين للسلاطين السلاجقة: ومثالنا على ذلك أن السلطان سنجار اضطر الى مقاتلة شعبه بالذات أي الأوغوز كما كان يفعل في الماضي خانات القرن الثامن: حتى أنه ظل أسيراً بعض الوقت لدى الأوغوز واضطر الى الفرار للنجاة بحياته»[٢٦].

د ـ مفهوم الحكم التركي ـ السلجوقي

إن الأمراء السلاجقة، وقد فاقوا سائر العشائر والقبائل التركية التي لم تكن مهتمة بمساندتهم، ومع احتفاظ هؤلاء الأمراء باللغة التركية فإنهم صاروا

24 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 207.

25 Barthold, *op. cit.*, p. 83, 84.

26 Barthold, *op. cit.*, p. 88.

يتحولون الى الايرانية أكثر فأكثر كلما توغلوا في الهضبة الايرانية وذلك بتبنيهم المفهوم الايراني للسلطة وباعتمادهم المفاهيم الادارية لدى تلك المناطق القديمة المتحضرة. «ومن الدلائل الخاصة أن يظهر من جديد في أيام الفاتحين الأتراك السلاجقة وللمرة الأولى في خراسان لقب شاهنشاه الإيراني القديم مضروباً على العملات. . . ولم يسبقهم إلا أسرة بني بويه الإيرانيين الشيعة الذين تولوا السلطة في بغداد وفارس الغربية الى حمل لقب شاهنشاه (ملك الملوك)»[٢٧].

وبعد الدخول الظافر لطغرل بك الى بغداد فإن الملوك السلاجقة تحولوا «من شاهنشاهات الى سلاطين الإسلام. واكتسبت كلمة سلطان العربية في أيامهم مدلولاً أدق مما كان لها سابقاً»[٢٨]. فالسلطان، الذي كان يحكم أمراء ورؤساء تابعين له كانوا يحملون لقب ملك (بالعربية) أو شاه (أي ملك بالفارسية)، أصبح نوعاً من ملك ملوك (شاهنشاه) أو أمبراطور.

هـ ـ أمبراطورية السلاجقة التركية ـ الآسيوية تخلف أمبراطورية العباسيين العربية ـ الإيرانية

«لا بد لنا من الاعتراف بأن وصول السلاجقة الى بغداد يمثل تحولاً حاسماً في تاريخ الاسلام. فنحن نشعر اليوم بخطورة التجزئة التي كانت عليها الأمبراطورية العباسية والتي نهضت على حطامها دويلات انعزالية خطرة على الوحدة الدينية والسياسية للعالم الاسلامي. . . إن السلاجقة، وبفضل مفهومهم البنّاء والسلطوي، كانوا وراء نهضة قوية، وبعزمهم الذي لا يلين نفحوا في الإسلام دماً جديداً وأقاموا لصالحهم أمبراطورية تحمل الصفات العامة نفسها التي كانت للسيادة الأموية في أوجها لا بل كانت تفوقها في تنظيمها الدقيق للغاية. . .

إن الأتراك جاؤوا في أوانهم وخصوصاً لإنقاذ الأمبراطورية السنية وربما العالم الاسلامي أيضاً كونهم وعما قريب سيظهرون بمظهر مقاومي المسيحية. ويعود معظم الفضل لهم ولتابعيهم البسلاء لجهة إخفاق الحملات الصليبية»[٢٩]. «وكما يلاحظ السيد رينه غروسيه فإن تحالف الأتراك مع

27 Barthold, *op. cit.*, p. 83.
28 Barthold, *op. cit.*, p. 83.
29 Wiet, *L'Egypte arabe*, p. 236, 237.

الإسلام يذكرنا بتحالف الفرنك مع المسيحية وقد أعطى النتائج نفسها أيضا بتوليده عالماً مميزاً. فاستعاد الأتراك من أيدي العرب الجزائري القوى المشعل الذي كاد ينطفىء. وهكذا فإن شعب السهب، وقد أعقب شعب الصحراء، شن الهجمة المسلمة الثانية وبالأساليب العسكرية نفسها إنما على أراض مختلفة»[٣٠].

30 M. Clerget, *La Turquie, passé et présent*, p. 8-9.

III. تحويل بلاد ما وراء النهر |تركستان| وآسيا الصغرى |تركيا| الى التركية

في حين أن الشعوب التركية ـ الأولية والتركية الخارجة على التوالي من منغوليا والمستقرة في الصين الشمالية قد حولت بشكل عام الى الصينية وفي حين تراجعت لغة الفاتحين الأتراك في إيران والعراق وسورية أمام اللغتين الفارسية والعربية لكن في المقابل فإن بلاد ما وراء النهر، وبلاد الروم أو آسيا الصغرى تحولتا على التوالي الى التركية وسرعان ما أصبح هذان القطران أحدهما تركستان أو بلد الأتراك والآخر تركيا المعاصرة وسوف يحتفظان حتى يومنا هذا بوجههما التركي لغوياً.

١ ـ تحويل تركستان الى التركية (في القرنين التاسع والعاشر)

أ ـ الترك يتحولون الى حضر في تركستان

إن أتراك منغوليا، وهم بدو أصلاً، لدى هجرتهم الى الأراضي المزروعة في الغرب، كانوا يتخلون عموماً عن حياة البداوة لصالح حياة الحضر. وبعدما استقروا في البلدان التي أقاموا فيها فإن عشائرهم المتفرقة شكلت نوى عرقية متميزة متناثرة في المدى، كانت تنمو حولها مجموعات من الأتراك الأصليين متحدرة من مهاجرين جاؤوا من الشرق ومجموعات من السكان الأصليين أو المحليين اعتمدت لغة المحتلين أي اللغة التركية.

«إن الانتقال من حياة البداوة الى حياة الحضر يجري في كل مكان تحت ضغط الحاجات الاقتصادية. وكانت حاجة من هذا النوع قد ظهرت أولاً في تركستان الشرقية حيث لا يوجد مراع لتغذية القطعان وحيث الأرض في المناطق غير المروية بالقنوات أو غير صالحةً كمرعى ليست سوى صحراء رملية غير مؤهلة لتربية الماشية ولا للزراعة.

وبحسب المكتشفات الأثرية الحديثة لم يعد هناك أي شك بأن تركستان الغربية لم تكن أصلاً بلداً تركياً أسوة بتركستان الشرقية وبأنه لم يطله التأثير التركي إلا بطريقة تدريجية. وإن تحويل السكان الأصليين هناك الى التركية لا بد أن يكون اقترن بتحول الأتراك الى الحياة الحضرية وقد اتبع هذان التحولان الطريق نفسها أي من الشرق الى الغرب»[1].

ب ـ المجموعات التركية الأولى التي اعتنقت الاسلام (القرن العاشر)

إن الفاتحين العرب الذين احتلوا إيران لا يبدو أنهم سعوا الى السيادة على أتراك أقطار آسيا الوسطى. واتبعوا في تلك المناطق سياسة دفاعية فبنوا كأسلافهم الإيرانيين الحصون والخنادق لحماية ممتلكاتهم وبخاصة في سجديان وبختريان أو ما وراء النهر ضد هجمات الأتراك.

ومن جهة أخرى كان دخول الدين الاسلامي بطيئاً لدى أتراك آسيا الوسطى في حين أن المسيحية وحتى اليهودية كان لهما أتباع كثر في تلك الأرجاء. فاليهودية بشكل خاص تبناها في نهاية القرن السابع الخاقان والأرستوقراطية لدى أتراك الخزر في حوض الفولغا غير أن عامة شعب الخزر فكان من المسلمين والمسيحيين أكثر مما هو من اليهود.

إن الشعوب التركية التي كانت تعيش في ذلك العصر في آسيا الوسطى كانت ذات مستوى ثقافي وحضاري بالغ التخلف مما حال دون تأثرها بمفهوم العقيدة والممارسات الدينية الاسلامية. ويذكر المؤرخ ياقوت الحموي أنه «وفي أيام الخليفة هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) ارسلت بعثة عربية الى الأتراك... بهدف عرض اعتناق الاسلام عليهم. وإن الخاقان نظم في حضور الموفد عرضاً لقواه العسكرية وقال على أثره للموفد: إن هؤلاء الرجال الذين ليس بينهم أي حرفي أو حلاق أو حداد أو خياط ـ لن يعرفوا كيف يكسبون عيشهم إذا اعتنقوا الاسلام وتقيدوا بتعاليمه»[2].

إن أول خان تركي اعتنق الاسلام يعتقد أنه صاتوق بوغرا خان أمير كشغر المتوفى العام ٩٥٦ وقد أدى اعتناقه هذا للاسلام الى اعتناق كل شعبه لهذا الدين. وإن هذا الخان، الذي فتح قبل موته بقليل أمبراطورية الإيرانيين

1 Barthold, *op. cit.*, p. 30.

2 Barthold, *op. cit.*, p. 57.

السامانيين، أسس في ما وراء النهر أول دولة تركية مسلمة هي أمبراطورية الأتراك الكرخانيين.

«وخلال القرن العاشر نفسه هذا فإن جزءاً من الأوغوز العائشين قرب المجرى الأسفل لنهر الفولغا اعتنقوا الاسلام أيضاً. ودشن رئيس هذه المجموعات التي اعتنقت الاسلام حديثاً عهده كأمير مسلم بإعفاء المدن الإسلامية من الضرائب التي كانت تدفعها حتى ذلك الوقت للكفرة»[3].

وقد انتشر الدين الاسلامي، أسوة بالدينين المسيحي واليهودي، بين أتراك آسيا الوسطى عن طريق التجار المسلمين وليس عن طريق السلاح. وهذا لا يعني البتة أن عمل هؤلاء التجار كان مقروناً بنشر الدين الاسلامي. إنما «وبفضل التفوق الاسلامي في ذلك العصر من الناحية الثقافية، فإن كل اتصال بالثقافات الأخرى كان لا بد أن يفضي في النهاية الى توسيع نطاق الانتشار الاسلامي» (برتولد). ومن المؤكد أن التجار المسلمين كان لهم دور كبير في رفع المستوى الثقافي في تلك المناطق من الشرق. فالانطلاقة التجارية، التي لم تكن مثل اليوم مرتبطة بالانتصارات السياسية، كانت تشمل مناطق عدة خاضعة لسيطرات مختلفة.

«وقد تأسست شركات تجارية كانت تقيم علاقات مع بعضها بعضاً. وبرغم أن مؤسسات التسليف المالي، كما نعرفها اليوم، لم تكن موجودة إلا أنه كان بالإمكان، في ذلك العصر، قبض المال في مدينة أخرى تابعة لسلطة الحكم نفسه بناء على مستند يحصلون عليه في مكان معين... وبفضل تفوق الايرانيين في القطاع التجاري فإن الكلمة الفارسية (شيك) التي كانت تعني السندات أو القسائم، عرفت انتشاراً واسعاً،وتحديداً بصيغتها الفارسية وليس العربية المطابقة (صك). وسرعان ما درجت الصيغة الفارسية لهذه الكلمة (شيك) في أوروبا الغربية لاحقاً ثم عمّت العالم التجاري بأسره حتى يومنا»[4].

ج ـ تفوق الثقافة الفارسية في تركستان

إن التوغل الاسلامي بين أتراك آسيا الوسطى أفاد الثقافة الاسلامية والنفوذ الايراني اللذين شهدا تطوراً كبيراً على حساب الثقافة الهندية التي

3 Barthold, *op. cit.*, p. 63.

4 Barthold, *op. cit.*, p. 102.

كانت مزدهرة في تلك المناطق. وإن الاكتشافات الأثرية في تركستان قد أظهرت وجود أدب بوذي باللغة السجديانية خلال القرن السابع كانت أعماله الأدبية مترجمة الى التركية.

فيكون أن النفوذ الفارسي، الثقافي والسياسي، وبسبب تفوق العنصر الإيراني في عهد الخلفاء العباسيين هو الذي أفاد من انتشار الاسلام في آسيا الوسطى. وإن توحيد إيران كلها سياسياً في إطار الأمبراطورية العربية ـ الإسلامية أتاح للفرس الأغلب عدداً من الفاتحين العرب بالتوغل والاستقرار في تركستان العتيدة. فحلت اللغة الفارسية، وليس العربية، تدريجاً محل اللغات الإيرانية في إيران وتركستان المقبلة بما فيها اللغة السجديانية. إن نقوش أورخون التي لا تذكر كلمة «عرب» تعرّفهم باسم تازيك وهو الاسم الذي كان الفرس والصينيون ومن بعدهم الترك يطلقونه على العرب.

كما أن الترك كانوا أيضاً يسمون بكلمة فارسية هي تركمان أبناء جنسهم الذين يشبه شكلهم شكل الايرانيين. ويورد محمود الكشغري أن الترك الكرلوك والأوغوز كانوا يسمون بالتركمان.

«إن أصل ومصدر كلمة تركمان التي ظهرت للمرة الأولى في القرن العاشر من العهد المسيحي تظل حتى الآن لغزاً. فأصل الكلمة الفارسية: ترك مانند أي الشبيه بالترك هي بالطبع مستبعدة. ومن الواضح أن النموذج التركماني يختلف عن النموذج التركي العادي ويشبه بالأحرى النموذج الايراني. فالكرلوك كانوا معرضين، وبشكل أكيد، لا بل أكثر من الأوغوز، لنفوذ العناصر الايرانية وحتى قبل اعتناق الاسلام كانوا أقرب الى الثقافة الاسلامية من سائر الأتراك»[5].

د ـ انتصار اللغة التركية في تركستان

ورغم الانتشار الثقافي الفارسي الواسع فإن اللغة التركية ستصمد في وجه اللغة الفارسية وستنتهي الى الانتصار عليها في آسيا الوسطى وحتى في بعض أنحاء الهضبة الإيرانية.

هكذا «وبدءاً من القرون الأولى بدأت ظاهرتا تطور استمرتا حتى أيامنا هذه:

5 Barthold, *op. cit.*, p. 62.

١) الاستبدال التدريجي للغات الايرانية الحية باللغة الأدبية الفارسية.

٢) الاستبدال التدريجي للغات الايرانية (بما فيها اللغة الأدبية الفارسية) باللغة التركية.

ولا بد أن نلاحظ في هذه المناسبة أنه وفي فارس نفسها فإن انتشار اللغة التركية كان يمتد أكثر فأكثر. وإذا كان مثلاً الأتراك والفرس يعيشون معاً في القرية الواحدة فإن التركية كانت تصبح تدريجاً هي اللغة المشتركة للسكان»[٦].

إن هذا التفوق الذي شهدته اللغة التركية على اللغة الفارسية في تركستان الشرقية، والذي بدأ مع وصول الأتراك المطرودين من منغوليا العام ٧٣٥، أخذ يطرد بدءاً من العام ٨٤٠ وهو التاريخ الذي هاجر فيه الترك الويغور الذين دمرت أمبراطوريتهم في منغوليا إثر غزو الترك الكيرغيز لها، الى تركستان الشرقية حيث انتقلوا من حياة البدو الى حياة الحضر. وقد حمل الويغور معهم الى محل سكنهم الجديد الشامانية، وهي دين جدودهم، والمانيشية التي جاءتهم من فارس. وبعد القرن العاشر أخذت المانيشية تتراجع في صفوف الويغور لصالح البوذية الهندية والمسيحية وبخاصة الاسلام.

غير ان انتصار اللغة التركية في تركستان لم يكن حصريا. فلمدة طويلة ظلت اللغتان، العربية وهي اللغة الدينية والفارسية وهي لغة الثقافة والإدارة شائعتين.

«وأما في مناطق الترك الكرخانيين فإن العربية استبدلت أكثر فأكثر بالفارسية في مجال الإدارة والأدب... وقد إستبدلت العربية بالفارسية حتى في مجال التعليم الديني... ومثل هذه الظاهرة حصلت أيضاً في مجال التعليم الأولي للدين. لكن العربية مع ذلك ظلت في دول الترك الكرخانيين وحتى في كشغاريا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر لغة القضاء... وفي سمرقند لم يكن هناك أدب في اللغة التركية. وفي بلاط الخان كان يعيش شعراء فرس يتمتعون بحمايته»[٧].

6 Barthold, *op. cit.*, p. 35.

7 Barthold, *op. cit.*, p. 104, 105.

هـ ـ إيران وطوران.

وبعد إستقرار الأتراك في تركستان فإن المعارضة القديمة بين الإيرانيين الحضر وجيرانهم بدو الشرق استمرت، كما في الماضي، بين إيران القديمة وطوران الجديدة.

«ومن الممكن أنه وفي إيران بحد ذاتها فإن الحرب ضد الترك نظر اليها أيضاً من زاوية التقاليد القومية الإيرانية. وفي هذا التاريخ تحديداً ظهرت الشاهنامة للفردوسي والتي كتبها منذ زمن السامانيين لكنها لم تنتشر إلا في أيام السلطان محمود الغزنوي. وخصص فيها حيز كبير للصراع بين إيران وطوران. ولا بد لنا من الاشارة هنا الى أنه، ومنذ ظهور الأتراك في القرن السادس ب.م.، كانت كلمة طوران تستخدم للإشارة الى تركستان أي بلد الترك وان أبطال ذلك الصراع من الجانب الطوراني رفعوا الى مرتبة ملوك ترك»[8].

وتجدر الملاحظة الى أن اسم «طورانيين» أو بدو «طوران» الوارد في ملحمة الشاهنامة الفارسية، والذي كان الإيرانيون أنفسهم يطلقونه على أتراك منطقة التركستان، كان يعني قبل وصول الأتراك، البدو من السكان الأصليين والإيرانيين في تلك المناطق.

«ونحن نعلم اليوم أن الطورانيين لم يكونوا أبداً من الأتراك بل من الإيرانيين ممن هربوا من تدابير الإصلاح الزرادشتي ومن حياة الحضر وكانوا ما يزالون يتنقلون عند التخوم الشمالية من إيران الشرقية»[9]. ولم يظهر الأتراك القادمون من منغوليا إلا بعد ذلك بكثير في طوران الإيرانيين وسوف يسمون تالياً بالطورانيين».

٢ ـ تحويل آسيا الصغرى الى التركية (القرنان الحادي عشر والثاني عشر)

لقد رأينا فيما مضى أن تركستان ما قبل التركية (ما وراء النهر)، والتي كانت تتكلم لغات إيرانية، بدأت منذ القرون الأولى للإسلام تتعرض لغزو اللغة التركية التي كان يحملها معهم مهاجرون مجهولون بحيث رجحت كفة اللغة التركية على الفارسية في تلك المنطقة بدءاً من هجرة الأتراك الويغور اليها (٨٤٠).

وأما في آسيا الصغرى المتحولة الى الهللينية منذ قرون عدة فإن دخول اللغة التركية وتفوقها التدريجي فيها على اللغة اليونانية بدأ مع مطلع القرن

8 Barthold, *op. cit.*, p. 69, 70.
9 Grousset, «La civilisation iranienne», *op. cit.*, p. 338.

الحادي عشر في أيام حكم الأمراء السلاجقة الأول الذين أخضعوا الأناضول الشرقي لسيادتهم.

أ ـ دور السلاطين الأتراك السلاجقة في تحويل شعوب أمبراطوريتهم الى التركية

رأينا في ما سبق أن السلاطين الأتراك السلاجقة في تطلعاتهم الاستعمارية قوبلوا بعدم تأييد من جانب إخوانهم الأوغوز المستقرين قبلهم في إيران ولم يسعوا البتة الى الاستناد على مفهوم قومي تركي ولا الى تشكيل أي اتحاد عرقي يضم كل أتراك أمبراطوريتهم بهدف إنشاء دولة قومية تركية كبرى ودعمها. ذلك أن الأتراك المهاجرين الى آسيا الغربية وأولئك المستقرين في آسيا الوسطى كانوا في ذلك العصر على جانب كبير من التمايز فيما بينهم مما كان يحول دون تجمعهم في وحدة سياسية متجانسة ونظامية. حتى أن الملوك السلاجقة، ومع احتفاظهم بلغتهم التركية، تحولوا بالأحرى وكما رأينا، الى الإيرانية وتبنوا المفهوم الإيراني حول السلطة السياسية ومنحوا أنفسهم، على العملات المسكوكة في خراسان، اللقب الإيراني القديم شاهنشاه (ملك الملوك) وليس لقب خان التركي أو خاقان. وأما في الغرب العربي ـ الإسلامي (العراق العباسي) فإن اللقب العربي سلطان طغى على لقب شاهنشاه.

وبصفتهم سلاطين وحماة للإسلام والسنة الإسلامية فإن ملوك السلاجقة كان عليهم أن يكرسوا نشاطهم لتوسيع حدود العالم الإسلامي خارجاً ولانتصار العقيدة الإسلامية السنية داخل أمبراطوريتهم. ومن هنا صراعهم المزدوج ضد مسيحيي آسيا الصغرى والقفقاس الذين صاروا يتحولون تدريجاً الى التركية ويعتنق معظمهم الإسلام من جهة، وضد المنشقين الشيعة في العراق وسورية ومصر ممن كانوا يقاومون التحول الى التركية.

إثر موت برقياروق (١٠٩٣ ـ ١١٠٤) ثالث خلف لطغرل بك، وكان قد أمضى عهده في مقاتلة إخوته، ظلت الممتلكات السلجوقية مقسمة نهائياً الى ثلاث مجموعات يخص كل منها قائداً من سلالة طغرل وهي فارس وسورية وآسيا الصغرى.

«إن أقدار هذه المجموعات الثلاث كانت مختلفة جداً... ففي فارس، ورغم إنشاء نواة مراكز تركية (في خراسان وأذربيجان ومن ناحية همذان)، فإن غالبية السكان ظلت إيرانية. وأما في سورية فإن العناصر التركية كانت متوزعة

بعيداً جداً عن بعضها مما حال دون خرقها السكان العرب إلا من ناحية أنطاكيا وإسكندرون. وفي آسيا الصغرى، على العكس من ذلك، فإننا لم نشهد الاحتلال السياسي للبلاد وحسب بل الاستيلاء الفعلي على الأرض من قبل العرق التركي. فالراعي التركماني حل محل الفلاح البيزنطي»[10].

وهكذا فإن عملية التحويل الى التركية لم توفق وتنجح لا في سورية ولا في العراق ولا في إيران بل بالعكس فإن الأتراك السلاجقة أنفسهم تحولوا الى عرب في سورية والعراق وأصبحوا إيرانيين في إيران.

وإذا كانت سورية والعراق، اللتان استبدلتا لغتهما السامية ـ الآرامية باللغة السامية ـ العربية بعد الفتح العربي، قد رفضتا التحول الى اللغة التركية فما ذلك إلا لأن بلدان الهلال الخصيب، وكما رأينا، كانت باستمرار خلال تاريخها الطويل معادية لأي ثقافة غير سامية. وبعد قرون طويلة من السيادة اليونانية ـ الرومانية في سورية والفارسية في العراق فإن الهللينية والفارسية اضطرتا الى التراجع أمام نهضة الثقافة السامية، الآرامية منها والعربية.

وفي إيران التي نبذت هي أيضاً اللغة اليونانية في ظل حكم خلفاء الاسكندر الأكبر كما رفضت أيضاً لغة الفاتحين العرب «فالحضارة والعرقية الإيرانيتان كانتا قويتين الى درجة منعت تحويل البلاد الى التركية» (غروسيه). بل إن الفاتحين الأتراك هم (من ملوك وقوات) الذين تحولوا كأسلافهم العرب الى الإيرانية.

ب ـ الظروف التي ساعدت على تحويل الأناضول الى التركية.

وفي الأناضول الشرقية والوسطى، والتي تكمل سهوبها سهوب آسيا الوسطى، فإن عملية التحويل إلى التركية كانت موفقة أسوة بما حصل في تركستان. فسكان الأناضول الأصليون المتحولون إلى الهللينية منذ قرون عدة هم، كما سنرى لاحقاً، من سلائل السكان الآسيانيين والذين يعتبر عرقهم متقارباً مع العرق التركي. فمن سلطنتي آسيا الصغرى التركيتين السلجوقيتين ـ سلطنة نيقيا وخليفتها سلطنة قونيا (١٠٨١ ـ ١٣٠٢) ـ ستخرج يوماً تركيا التاريخية.

«ولنستوفي الموضوع من كل جوانبه لا بد من أن نضيف بأن عملية تحويل

10 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 210.

الأناضول إلى التركية لم تكن صنيعة السلالة السلجوقية الحاكمة نفسها بقدر ما كانت صنيعة الأمراء الإقليميين والعشائر التركمانية. . . من الوجهة الثقافية مثلاً كان لدى سلاجقة الأناضول رغبة أنسبائهم في فارس وإرادتهم الواضحة في التحول إلى الإيرانية. وبما أنه لم يكن يوجد يومها في آسيا الغربية لغة أدبية تركية فإن بلاط سلاجقة قونيا إعتمد الفارسية كلغة رسمية (وبقي كذلك حتى العام ١٢٧٥م.). . . وهكذا تظهر لنا تركيا السلجوقية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ثقافة فارسية سطحية تغطي الأساس التركماني. . . ولكن هذا الغطاء الذي هو صنعي نوعاً ما لا يجب أن يغرنا أو يخفي عملية التتريك العميقة التي كانت تقوم بها زمر الغوز في الكبادوك وفريجيا وغلاطية»[11].

٣ ـ الطابع الأناضولي لدى سكان آسيا الصغرى الحاليين.

أ ـ الأناضوليون الحاليون سكان أصليون تحولوا إلى التركية أو اللغة التركية.

إن الشعوب الحالية في آسيا الصغرى، التي تتكلم اللغة التركية وعامياتها، والتي تحولت تدريجاً إلى التركية والإسلام بدءاً من القرن الحادي عشر، هم اليوم خلفاء السكان الأصليين الماقبل الأتراك وممثلوهم، الذين إستمر نموذجهم البشري فضلا عن طباعهم العامة في خطوطها الكبرى منذ أقدم الأزمنة حتى يومنا هذا.

فتتريك بلاد الأناضول كان وبالأخص حالياً، لغوياً أكثر منه عرقياً. إذ أن أتراك الأناضول الحاليين يختلفون كثيراً من الناحية الجسدية والنفسية عن الأتراك البدائيين والأولين الذين جاؤوا قبل قرون عدة من منغوليا موطنهم الأم. وهؤلاء الترك المنغوليو الأصل إندمجوا في مجموعة السكان الأصليين. إن خلفاء الغزاة الأتراك، وقد إنصهروا خلال القرون بالسكان الأصليين الماقبل الأتراك الذين ظلوا بعد الفتح أكثر منهم عدداً، وتغيروا فضلاً عن ذلك بفعل تأثير الوسط الطبيعي الأناضولي الذي خلع على طبعهم تدريجاً سمته الخاصة، إكتسبوا في نهاية الأمر الصفات العامة التي كانت للأناضوليين السابقين للفتح.

ب ـ الصفات القومية وتأثير الوسط الجغرافي والمزائج العرقية.

لقد رأينا خلال الفترات السابقة لاسيما بعد الفتح العربي الإسلامي أن

11 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 212.

الصفات الأساسية لدى شعب ما، سواء الجسدية أو النفسية، هي عموماً بمثل ثبات أحوال الوسط الطبيعي الذي شكلها. فالصفات العرقية أو الغريزية لدى مجموعة إجتماعية معينة، والتي هي نتيجة تأثير مشترك يقوم به الوسط الجغرافي الذي هو ثابت نسبياً وعامل الوراثة، هي من حيث المبدأ لا تتغير نسبياً. ولهذه الأسباب نفسها فإن أي مجموعة تنقل إلى منطقة مختلفة عن بلدها الأصلي تتعدل في هذه المنطقة على المدى الطويل بفعل تأثير الوسط وعوامل التزاوج وتصبح مع مرور الزمن أصلية كالسكان الأصليين أنفسهم.

إن الفعل المبوتق الذي يلعبه الوسط الجغرافي، وقد أكده التاريخ، يثبته أيضاً علم الآثار. فالهياكل العظمية المستحثة المتحجرة المستخرجة من الأرض في أفريقيا الشرقية وأوستراليا وأميركا الشمالية والجنوبية تظهر تشابهات كبيرة مع السكان الأصليين الحاليين في تلك المناطق. وإن سحنة المصريين والأشوريين والحثيين القدامى عامة، كما تظهر في المنحوتات أو رسوم النصب الأثرية التي خلفتها تلك الشعوب، تشبه إلى حد بعيد نماذج أحفادهم المعاصرين.

ومن المحتمل أن تبقى بعض المجموعات العرقية المنتقلة والمستقرة في وسط جغرافي جديد أحياناً ولفترة طويلة، برغم إمتزاجها بالسكان الأصليين، مستمرة على إظهار صفات موروثة عن الجدود المهاجرين أو عن العناصر المختلفة المكونة لها. لكن في الحقيقة فإن هذا الثبات ليس إلا ظاهراً ونسبياً. وإن قصر الحياة البشرية لا يسمح لنا بتبين التغييرات التي تمت خلال العصور. فالأشكال الحالية لتلك المجموعات ليست سوى مرحلة محدودة أو فترة من تطورها نحو الشكل النهائي الذي يطبعها به الوسط الجغرافي.

ومن الأكيد أن التهجين يحدث أحياناً كثيرة تغييرات متفاوتة العمق بحسبما إذا كان عدد المهاجرين الدخلاء إلى البلد أكبر من عدد السكان الأصليين. ولكن هذا التغيير الذي هو مبدئياً آني لا يطال عموماً إلا الصفات الثانوية في العرق (لغة، دين، ثقافة، نمط الحياة، كفاءات خاصة، إلخ...) وحتى عندما يؤثر التغيير على الطبائع الأساسية أو الجوهرية (طاقة، إرادة، ميول، عواطف، أهواء، إلخ...) إلا أن هذه الطباع، وبعد مرور وقت متفاوت في الطول، ستستعيد تحت تأثير الوسط صفاتها العامة السابقة.

ج ـ التهجين التركي ـ الأناضولي

وتماماً كما أن الفاتحين العرب الذين جاؤوا من الجزيرة العربية مع الفتح الإسلامي إندمجوا بالشعوب المحتلة الذين إستعربوهم وأدخلوهم في الإسلام هكذا أيضاً فإن الفاتحين الترك الذين جاؤوا من آسيا الوسطى لم يفرغوا الأناضول من سكانه القدماء للحلول محلهم. والأتراك، ككل الفاتحين، لم يبيدوا إلا المحاربين الذين كانوا يعيقون تقدمهم فضلاً عن العناصر التي يمكن أن يشكل مركزها ودورها خطراً جدياً إلى حدٍ ما على هيمنتهم السياسية. وأما سائر سكان آسيا الصغرى جميعاً، سواء في المدن أو الأرياف أي الأغلبية الساحقة من الأهالي، فقد ظلوا في أماكنهم ولم يتحولوا إلى التركية والإسلام إلا ببطء وتدريجاً. وهذه الوقائع الدامغة شهدت عليها أحداث التاريخ وأثبتتها.

«وكما كان متوقعاً فإن إنتشار الإسلام في بلد إعتاد على المسيحية منذ عصور بعيدة لم يتم إلا ببطء: حتى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر فإن الدخل الرئيسي لعائدات الحكم الإسلامي المحلي كان الجزية أي الضريبة التي يدفعها السكان غير المسلمين مما يجعلنا نستنتج بأن هؤلاء السكان غير المسلمين كانوا ما يزالون كثراً.

إن هذه المشكلة معقدة كثيراً لاسيما وأن عملية التتريك (كعملية التعريب سابقاً) لم تكن متزامنة مع عملية نشر الإسلام. ومعلوم أن اللغة العربية إعتمدت في سورية ومصر حتى من قبل السكان الذين ظلوا مسيحيين أو يهوداً. وأما في زمن السيادة التركية فما حصل ليس فقط أن يتبنى الذين إحتفظوا بإيمانهم المسيحي اللغة التركية بل أيضاً إن الذين إحتفظوا بلغتهم كانوا يعتنقون الإسلام، فكان الإسلام، والحالة هذه، يتكيف مع هذه اللغة أو تلك من لغات السكان المعنيين»[12]. إن الغزوات التركية ـ المغولية التي قام بها جنكيزخان (١١٥٤ـ١٢٢٧) وتيمورلنك (١٣٣٦ـ١٤٠٥) جاءت بلا ريب إلى آسيا الصغرى وإلى سواها بعدد كبير من المجندين الأتراك الذين نشطوا ودعموا أبناء جنسهم الأناضوليين. «لكن زمر هذين الفاتحين لم تكن بمثل ذلك العدد الكبير الذي تزعمه كتب التاريخ» (زابوروفسكي).

د ـ مشابهة الأحوال الطبيعية في الهضبة الأناضولية والسهوب الآسيوية

وإذا سلمنا، وهو فرض محال للغاية، أن الفاتحين الأتراك الذين غزوا

12 Barthold, *op. cit.*, p. 87.

آسيا الصغرى أفرغوا هـذه البلاد تمـاماً من سكـانها القدامى وحلوا محلهم، ففي مثـل هذه الحـالة أيضـاً لَطُبِعَ هؤلاء المهاجـرون الأتراك تـدريجاً خـلال العصور الماضية، بالسمات الأناضولية التي تدمغ السكان فيهـا الأحوال الـطبيعية للوسط الجغرافي.

ومن المفيـد أن نشـير هنـا، والحـالـة هـذه، إلى أنـه إذا إحتفظ الاتـراك المهاجرون إلى آسيا الصغرى حتى اليـوم ببعض الصفات العـامة التي كـانت تميز إخـوانهم أو أبنـاء عمـومتهم في آسيـا الـوسـطى، فـما هـذا إلا لكـون المنـاخ والتشكيل الجغرافي اللذين تتمتـع بهما هضبـة الأناضـول يشبهان تقـريباً سهـوب الشرق.

فلقـد رأينـا أنـه إذا كـان العـرق التـركي قـد إستـولى فعـلاً عـلى الأرض الأناضولية وإذا كان «الراعي التركماني قد حـل محل الفـلاح البيزنـطي فما ذلـك إلا لأن الهضبة الأناضـولية بـإرتفاعهـا عن سطح البحـر ومناخهـا ونباتهـا تكمل منطقة سهوب آسيا الشمـالية. وإن سترابون قـد سبق ووصف ليكاؤونيـة وهي بلد قونيا الحـالي على أنـه سهب. فبين هـذه البلاد والبـدو القادمـين من السهب الكيرغيزي كان هناك تنـاسق معد سلفـاً. وقد أقـاموا فيهـا لأنهم وجدوا أنفسهم فيها. فهل يمكننا الذهاب أبعد بـإتهامهم، كـما فعل البعض، بـأنهم أسهموا عن غير وعي في تراجع المساحات المزروعـة لصالـح مساحـات المراعي؟ إن إحتـلال مقاطعتي الكبادوك وفريجيا القديمتين من قبل عشائر الغوز القادمة من صحارى الاورال لم تؤد إلى تتـريـك البـلاد وحسب بـل أيضـاً إلى تحـويلهـا إلى سهـوب. وعندما إمتد الغزو التركي إلى تراقيا لاحقاً مـع العثمانيـين فإن السهـوب إمتدت إلى هناك أيضاً. . .

في الواقع إن شهادة سترابون التي أتينا على ذكرها تثبت أن حوض بحيرة تـاتا كـان سهباً نصف صحـراوي منذ عهـد السلوقيين والآتـال والرومـان. وأما خراب تراقيا فناجم خصـوصاً عن كـونها كانت دائـماً ساحـة معارك دهـرية».[13] وهكذا فقبل الغزو التركي وبعده فإن سكـان الهضبة الأنـاضوليـة الذين لم تتغـير أوضاعهم المعيشية، على ما يبـدو، كانـوا رعاة أكـثر منهم فلاحيـن. وإن قساوة المناخ ذي التقلبات المفـاجئة وإختـلاف درجات الحـرارة وشح المـطر كان لهـا أثر كبير على السكان. وإن هؤلاء السكان، وقـد إكتسبوا خشـونة نتيجـة إقامتهم في

13 Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 210-212.

مثل هذه الظروف الطبيعية، تكونت لديهم مقاومة كبيرة للإندماج مع غيرهم بقوة. فالشعوب الحثية القديمة ما تزال تعيش في تلك الهضاب تحت أسماء أخرى وإن الغزوات المتلاحقة (آريين، ساميين، يونان، ترك، مغول، تتر) لم تغير شيئاً فعلياً بل على العكس فإنها جميعاً ذابت وسط السكان الأصليين. «وحدهم التركمان واليوروك أولئك البدو غير القابلين للتغير إحتفظوا وبصفاء تقريباً بنمط الغزاة الآسيويين المغولي»[14].

هـ ـ سكان الأناضول الأصليون والترك المستوطنون فيه، مجموعات عرقية متقاربة.

وإلى جانب تشابه الأحوال الطبيعية في الهضبة الأناضولية وسهوب آسيا ثمة عامل آخر ذو طابع عرقي يبدو أنه يقارب بين الأناضوليين القدامى والأتراك المستوطنين. فهؤلاء وأولئك قد ينتمون إلى عرق بشري واحد هو العرق المعروف بالأسياني أو الألبي والذي كانت تمتد سكناه من الأناضول وحتى آسيا الشرقية. وإلى هذا العرق الأسياني المستمر حتى أيامنا هذه ينتمي السومريون الذين جاؤوا من آسيا الوسطى أو الروسية السيبيرية وإستقروا في دلتا دجلة والفرات وأنشأوا في الألف الرابع ق.م. أول حضارة تاريخية في بلاد الرافدين.

إن هؤلاء السومريين الآسيانيين، وبحسب رأي كبار العلماء، يعودون إلى المجموعة العرقية الآورالية ـ الالطائية. «إن النصب الأثرية المكتشفة حديثاً في أور وتللو ولاغاش (الفرات الجنوبي) تظهر لنا شكلهم الجسدي وتماثله مع نموذج نقع عليه اليوم بوفرة بين شعوب تركستان العليا. وإن العديد من النقوش المحفورة في الصخر أو على ألواح فخارية أتاحت إعادة تشكيل لغتهم». [15] إن الميزات الأساسية لتلك اللغة «ما يزال ممكناً تميزها اليوم في اللغة التركية الحالية. وبعد آلاف عدة من السنين فإن نحو مايتي كلمة هي خير شاهد على اصلها المشترك»[16].

إن حثيي الأناضول الذين ظهروا على مسرح التاريخ بعد العام ٢٠٠٠ «كانوا الأتراك الأول الذين زرعوا الأرض الأناضولية. ومن المفيد أن نذكر في هذه المناسبة أن إسم حثيين أو خطيين في الألف الثاني ق.م. كان يعني في آن

14 Blanchard, *Asie Occidentale*, p. 97.
15 Benoist-Méchin, *Mustafa Kémal*, p. 34-35.
16 Stephan Ronart, *La Turquie d'aujourd'hui*, p. 17.

معاً السكان الآسيانيين في وسط الأناضول المسمين خطيين نسبة إلى عاصمتهم مدينة خطي (حالياً بوغازكوي) شمال شرق أنقرة والهندو ـ أوروبيين القادمين حديثاً من الشمال الغربي والذين إتخذوا لأنفسهم إسم السكان الأصليين أي الخطيين. وكانت هناك لغتان، هما لغة الخطيلي الآسيانية ولغة النازيلي الهندية الأوروبية، تتكلم كلاً منهما إحدى هاتين المجموعتين العرقيتين اللتين شكلتا بإمتزاجهما وإتحادهما الأمبراطورية الحثية الكبيرة والعتية في آسيا الصغرى.

فالخطيون أو الحثيون الآسيانيون، لا الحثيون الهندو ـ أوروبيون، هم الذين تحدر منهم معظم سكان الأناضول الحاليين. وأما حثيو الألف الثاني الهندو ـ أوروبيون، كسائر من جاء بعدهم من فريجيين ويونان وأتراك إلخ. . . فقد تم خلال العصور الماضية صهرهم من قبل السكان الأصليين وبوتقتهم بفعل الوسط الطبيعي الأناضولي.

و ـ نظرية «رابطة دراسة العرق التركي»

إن الطابع الذي يميز معظم سكان آسيا الصغرى الحاليين، وهو طابع السكان الأصليين بنوع خاص، قد إعترف به من قبل «رابطة دراسة التاريخ التركي»[١٧]، تؤكد ذلك نتائج الحفريات الأثرية في بوغازكوي (حيث عثر على محفوظات الأمبراطورية الحثية القديمة)وسواها من الأماكن الأناضولية الأخرى. ومن مجمل هذه الأعمال يتضح ان معظم الأناضوليين الحاليين ينتمي إلى عرق أصلي قديم ليس سوى جزء من العرق الكبير المعروف بالأسياني والذي كانت منطقة نفوذه تمتد حتى تركستان الشرقية. «هذه هي بإختصار، في الوقت الحاضر، النقاط الاساسية من التفسير المعطى للإكتشافات الحاصلة منذ نصف قرن حول هذه النقطة بالذات.

إن الأتراك هم من سكان الأناضول الأصليين لأنه في الواقع يمكن أن نسمي أتراكاً كل شعوب آسيا الوسطى التي إنتشرت في العالم منذ مطلع العصور التاريخية وحتى القرون الوسطى: وإن علم الأصوات الكلامية ودراسة أسماء العلم والبقايا البشرية والمنشآت، كلها تقدم إثباتات عديدة على ذلك. إن الأتراك الذين تركوا موطنهم الأصلي بسبب جفاف المناخ والأرض إنتشروا في كل مكان مع حضارتهم المتقدمة. فهم آسيانيو العلماء الغربيين أي الأساس

(١٧) رابطة أنشئت بطلب من أتاتورك، مؤسس تركيا المعاصرة.

العرقي الأقدم في الأناضول. وهم متميزون عن الساميين وعن الهندو ـ أوروبيين بلا ريب كذلك. وقد كانوا أول من إستوطن الأراضي الواسعة الممتدة من الهند وحتى جزر بحر إيجه مروراً بعيلام وبلاد ما بين النهرين. وقد أظهرت الحفريات الأثرية في كل مكان نموذجهم ذا الرأس القصير والعريض وذا الأنف العريض والمعقوف والوجنتين البارزتين والرقبة العريضة والقصيرة والذقن المربع وقبة الجمجمة المرتفعة والعينين المشدودتين نحو الصدغين. وإن هذه التشابهات الجسدية تتماثل مع تشابهات في اللغة والتنظيم الإجتماعي والديني. وإن سومريي بابل والكريتيين ثم الحثيين هم من هذا العرق المميز.

وفي ما يتعلق بالحثيين خصوصاً فالقربى بين هذا الشعب مع الشعوب السابقة له في تلك المنطقة تؤكدها، كما تضيف هذه النظرية، حفريات بوغازكوي الأثرية (شرق أنقرة) وحفريات إيوب وكول تيبه (قرب قيصرية) وغولوداج وأليشار وأعمال العلماء سايس وهروزني وفون در أوستن وونكلر وثورو دانجان وماك إيفان... وفيما بعد عندما حصل الإنحطاط السياسي فإن الأساس السكاني الحثي والمربع الرأس إستمر على الهضبة ولم يطرأ عليه أي تجديد إلا بقدوم أتراك جدد.

إن هذه النظرية الأخاذة هي نابعة من الحماسة التي ولدتها المكتشفات الأثرية الحديثة حول مرحلة ظلت حتى تاريخه غامضة. وأما أساسها الأصلب فمرده إلى ظهور كتلة بشرية آسيانية تبدو، بحسب معلوماتنا الحالية، متجانسة وتؤكد وجود قربى بينها وبين الشعوب المغولية والتركية والأرمنية. غير أنه لا بد من توخي الحذر الشديد حول ما هو فرضية حتى الآن لا أكثر.[18]

ز ـ خاتمة

وخلاصة القول إن تركي آسيا الصغرى الحالي هو بشكل عام أناضولي أصلي متحول إلى التركية لغة، أو تركي من أصل آسيوي متحول إلى أناضولي أصلي بفعل تأثير الوسط الطبيعي عليه وإمتزاجه بالسكان الأصليين القدامى الذين إستوعبوه تدريجاً. وإن تلك الشعوب الأصلية القديمة إعتمدت فقط اللغة التركية والدين الإسلامي، تماماً كما أنها وقبل قرون قليلة تحولت إلى الهللينية والمسيحية. وإن هذا التغيير في اللغة والدين، والذي بمحوه الماضي التاريخي عند الأناضوليين السابقين للأتراك، أدى إلى الإعتقاد بزوالهم. وهذا

18 M. Clerget, *La Turquie, passé et présent*, p. 35, 36, 37.

ينطبق أيضاً على بلاد ما وراء النهر وتركستان حيث أنه بفعل «التحول إلى الإسلام فضلاً عن التحول إلى التركية لم يبقَ شيء من ماضي ذلك الجزء من آسيا الوسطى» (غروسيه). ولقد رأينا أن تتريك البلدان المعتبرة اليوم تركية وتحويلها إلى الإسلام تمّا ببطء وتدريجاً وإنه وحتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر فإن المصدر الرئيسي من عائدات الحكم التركي ـ الإسلامي في الأناضول كان يتأتى من الجزية أي من ضريبة الرؤوس التي كان يدفعها الرعايا غير المسلمين. وأخيراً فإن اللغة التركية تطلبت زمناً طويلاً قبل أن تصبح لغة رسمية للإدارة في البلدان الخاضعة لحكم السلاجقة الأتراك وبخاصة في آسيا الصغرى، حيث بقيت اللغة الفارسية المعتمدة كلغة رسمية من قبل البلاط السلجوقي في قونيا على هذه الحال حتى العام ١٢٧٥ (غروسيه).

وهكذا وكما زود في الماضي رعاة وفلاحو الهضبة الأناضولية المتحولون إلى الهللينية والمسيحية الأمبراطورية الإغريقية ـ الرومانية والبيزنطية بخيرة الفيالق الشرقية فإن سلالة هؤلاء الأناضوليين، الذين صاروا أتراكاً مسلمين بعد الفتح السلجوقي، قدمت أيضاً أفضل الجنود لسلاطين آسيا الصغرى السلاجقة ثم لخلفائهم سلاطين الأتراك ـ العثمانيين. وقد كانت التقاليد والعادات والمؤسسات السياسية والإدارية البيزنطية وليست عادات وتقاليد ومؤسسات أتراك آسيا الوسطى هي السائدة في بلاط سلاطين القسطنطينية العثمانيين ورثة ملوك بيزنطية أكثر مما هم ورثة طغرل بك أو سلجوق.

وبإختصار وعلى مثال المصريين المعاصرين الذين هم من سلالات فراعنة وادي النيل وقد صاروا اليوم مسلمين وعرباً من حيث اللغة كذلك فإن أتراك الأناضول الحالية هم من سلالة الحثيين الأناضوليين القدماء الذين يتكلمون اللغة التركية ويمارسون شعائر الدين الإسلامي.